عبد الله بن حماد البلوي

الفرح بالقرآن



الطبعة الأولى

دار الحضارة للنشر والتوزيع

عبد الله حماد البلوي

الفرح بالقرآن



ح دار الحضارة للنشر و التوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البلوي، عبدالله بن حماد بن محمد الزوين

الفرح بالقرآن/ عبدالله بن حماد بن محمد الزوين البلوي- ط١ -
الرياض ١٤٤١هـ

ص ١٧٤؛ ١٤×٢٠سم

ردمك: ٧- ٨٩- ٨٢٩٠- ٦٠٣- ٩٧٨

١-فضائل القرآن أ- العنوان

ديوي ٢٢٩,٢ ١٤٤١/٩٢٤٨

رقم الإيداع: ١٤٤١/٩٢٤٨

ردمك: ٧- ٨٩- ٨٢٩٠- ٦٠٣- ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م



Mustafa-h123 @hotmail.com

دار الحضارة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

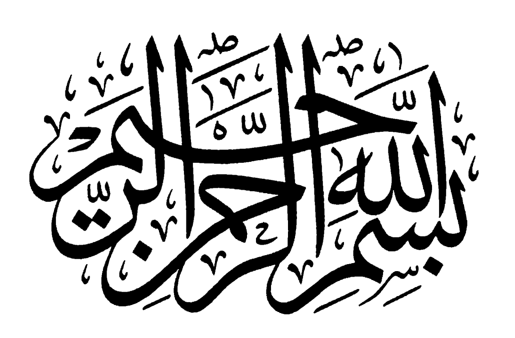
daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011

@daralhadarah 0551523173

زوروا متجر الحضارة : hadarah.store

متجر الحضارة
HADARAH • STORE


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إليك..

يامن عشت مع القرآن حفظًا وتدبّرًا وبركة..

إليك..

وصوت قرّاء إذاعة القرآن الذين أسمعهم يزيّنون صباحات بيتنا يدوّي في أذني..

إليك..

وأثر تلك القراءة مازلت أراه بريقًا يلوح في عينيك..

إلى والدتي الغالية..

ابنك

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين.. وبعد

فقد جاء رجلٌ من اليهود إلى عمرَ رضي الله عنه، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرؤونها، لو علينا نزَلتْ معشرَ اليهود، لاتخَذْنا ذلك اليومَ عيدًا، قال: وأيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ﴾[1] [المائدة: آية ٣].

بلا شكٍّ إنها آيةٌ عظيمة، فيها عطاءٌ مذهل، وفضل كبير، ولنا أن نُعجَبَ بحنْكة ذلك اليهوديِّ في اختيارهَا من بين آيات القرآن الكريم!

تساءلتُ وأنا أتأمَّلُ هذه القصة: ماذا لو كان هذا اليهوديُّ مؤمنًا بهذا الكتاب، مصدِّقًا بما فيه، هل سيمرُّ على آياته ووعوده وعطاياه دون أن يَشعُرَ بأنَّ المسرَّات والأفراحَ تكمُنُ في كل آية من آياته؟! ماذا لو كان من صحابته -عليه الصلاة والسلام- الذين أحَبُّوه من أعماقهم، وآذَتْهم سخريَّات أبي جهلٍ وأبي لهب فإذا به يسمع: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: آية ٩٥]؟! ماذا لو كان

(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧)، واللفظ له.

هذا اليهودي مؤمنًا بالله، مجتهدًا في عمل الصالحات، فإذا به يقفُ أمام: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [سورة طه: آية ١١٢]؟!، ويتأمَّلُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٩٤]؟! بل ماذا عساه أن يقولَ عن فاتحة الكتاب وهو من ضمنِ الذين يرتّلونها في كل صلاة؟!

إنها أعيادٌ ومسرات.. لم يحلُمْ بوجودها ذلك اليهودي!

وإنه لكتابٌ جاء ليَبعَثَ في نفوس أتباعه سعادةً لا تنقطع، وبهجةً لا تنتهي.

لقد استوقفَتْني كثيرًا هذه العبارةُ التي قالها هذا اليهودي: «لو علينا نزَلت معشَرَ اليهود، لاتخَذْنا ذلك اليومَ عيدًا»، وبدأتُ أشاهد أعيادًا حقيقية صنعها القرآنُ في نفوس الذين آمنوا به.

وبدأتُ ألـمَحُ فرَحَ واستبشار الرعيلِ الأول بهذا الكتاب المبارك..

وكيف ابتهَجتْ قلوبُهم، واستبشَرتْ أرواحُهم بنزول القرآن!

وكيف لا يَفرَحون، وكيف لا يَسعَدون والله يأمرهم بذلك، فيقول سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ

مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [سورة يونس: آية ٥٨]!

بعد ذلك وقَعتْ عيني على جواب مذهل وبديع لأحد علماء التفسير في العصر الحديث رحمه الله، فقد سأله أحدُهم عن شروط المفسِّر، قال له: «أن تملأ قلبَه الفرحةُ بالقرآن».

فشعَرتُ بعمق هذا الجواب، وروعة هذه اللَّفتة، فالذي يَفرَحُ بالقرآن، سيبذُلُ قَصارى جهدِه لتحقيقَ غايته منه.

فأخذتُ بجمعِ ما تقعُ عليه عيني من معاني الفرَحِ بالقرآن، مبتدئًا بسيرةِ الذي أنزَلَ اللهُ عليه القرآن، وكيف كان ابتهاجُه بالقرآن، وكَيف جاء هذا الكتابُ المبارَك، ليُفيضَ بمباهجَ دافقةٍ من أنواره وروعتِه على ذلك القلب النقيِّ الطاَهر.

ثم دوَّنتُ شيئًا من أفراحِ صحابته الكرام بهذا الكتابِ الذي أحياهم اللهُ بنزوله، وأخرَجَهم به إلى النور، والرَّشاد، والهدَاية.

وقمتُ باختيار بعض الآيات القرآنية الـمَلْأَى بالوعود والعطايا التي تُسعدُ القلبَ، وتُفرح الفؤاد، وتتغيَّرُ بتأمُّلِها النفوسُ المأزومة، لتستحيلَ أحزانُها أفراحًا لا تتوقّفُ.

ثم جمعتُ بعضًا من الاقتباساتِ والمقولات التي تتحدَّثُ عن الفرَحِ بهذا الكتابِ، والابتهاج به.

فالشكرُ لله وحده على إتمام هذا الكتاب، ثم الشكر لكلِّ مَن أمَدَّني برأيٍ، أو خاطرةٍ، أو شارَكَني مدةَ الكتابة بتصويباته وأفكاره.

أسأل اللهَ أن يكون هذا الكتاب سببًا لعلاقة أجملَ مع كتاب الله، وطريقًا يقودُ إلى الفرَحِ والابتهاج الدائم بهذا الكتابِ المبارك.

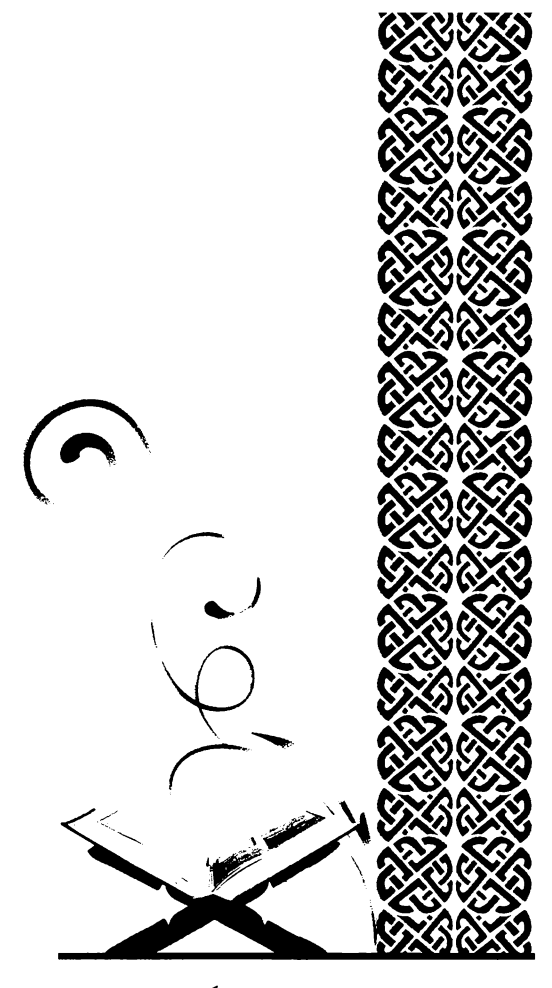
وصلى اللهُ وسلَّم وبارَكَ على حبيبِنا محمد!

عبد الله حماد البلوي

إيميل/ alzyin@hotmail.com

جـوال: 0543240006





بين يدَيِ الفَرَح

إنه الفرَحُ الذي يجمّلُ
الحياةَ بابتساماتٍ نادرَة..

بين يدي الفرح

الفرَحُ لفظةٌ لا ننطقُها إلا وتَظهَرُ نافورةُ ألوانٍ في خيالِنا تكتظُّ بالبهجة، وتنثرُ رذاذَها على أرواحنا!

ومعنًى لا نتخيَّلُه إلا ونرى ابتساماتِ الأحباب، ولقاءات الأشواق، وليالِيَ مُترَعةً بأحاديثِ الأُنس.

ولو لم يكُنْ للفَرَح إلا اسمُه، لكفى به سببًا أن يُطرِبَ أرواحَنا، ويؤنِسَ نفوسَنا، وتعلَّقَ له ثمراتُ خيالاتنا عناقيدَ الأنوار الحالمة.

إنَّ الفرَحَ لفظةٌ مليئة بالسعادة! وفيها عبقريَّةٌ لُغَوية خاصة، توحي لك بأنَّ هذه اللغةَ من تقديرِ حميدٍ مجيد!

فإذا ما جعَلْنا عِطْرَ الفرَحِ ينسكب على فخامةِ القرآن، فلن نرى عندها إلا ما تقصُرُ دونه اللغةُ، وتنحبس إزاءه الأنفاسُ، وتتواضع بحضرتِهِ كلُّ المفرَداتِ والقواميس.

عطَشُ الرُّوح

يأتي الفرَحُ بالقرآنِ كطائرٍ يحلِّقُ بنا في سماواتٍ وآفاق..

كوابلٍ يسقي جذورَنا المتصحِّرة..

كنَسَمةِ هواءٍ تداعِبُ أرواحَنا العطشى.

الفَرَحُ بالقرآن روايةٌ تُخبِرُ تلك الأحزانَ العميقة، والمخاوف المترقِّبة، والأوهام التي لا تَعرِفُ آدابَ الاستئذان: أنَّ ثمَّةَ أملًا لا يخبو، وغيمًا سيَهطِلُ، ونسيمًا سيمرُّ ويعبُرُ بنا إلى حيث نحبُّ.

هذه الكلمات سطَّرتُها واخترتُها: عن الفَرَحِ القرآنيِّ الذي يغشى النفوسَ، وتستحيلُ معه الأحزانُ أفراحًا..

عن البهجةِ التي تَصنَعُها في نفسِك الآياتُ، وتُخبِرك بالقادم الذي سيأتي، وبالبشائر التي ستَهطِلُ، وبالعطايا التي ستُنِيخُ مطاياها بين يديك في يومٍ من الأيام.

فتارةً تُخبِرُك الآياتُ بالموعدِ القادم، وبالمكانِ الذي أعَدَّه اللهُ هناك لعباده الصالحين، ذلك المكان الذي فيه كلُّ المباهج، والذي لا حُزْنَ فيه ولا نهاية.

وتارةً تُخبِرُك الآياتُ بفضلِ العمل الصالح، وبالأجورِ العظيمة التي يَظفَرُ بها مَن عَمِلَ الصالحاتِ، وفي أحيانٍ كثيرة تدُلُّك على أقرَبِ المسافات، وأجملِ الطرق التي توصلك إلى الله، وتعرِّفُك به، وبأسمائه وصفاته، وتعيشُ تاراتٍ مع الآيات التي تدعوك إلى أن تنظُرَ في هذا الملكوتِ الذي يحيطُ بك، وفي هذه الأفلاكِ التي لا حدودَ لجمالها وروعتِها.

إنَّ في القرآنِ سرًّا مدهشًا، وطَعْمًا مختلفًا، إنَّ في عُمْقِه فرَحًا خاصًّا، وفي أطرافِه أفراحًا ومباهجَ وأحلامًا! ومَن ذاق لذَّةَ هذا

الفرَحِ، زَهِدَ في كلِّ المسرَّاتِ العابرة..

إنه الفرَحُ الذي يجمِّلُ الحياةَ بابتساماتٍ نادرة..

إنها المسرَّاتُ التي ترمِّمُ أرواحَنا المتهالِكة، وترتُقُ ما بين انكساراتِنا اليومية، وأحلامنا الوَرْدية..

أعظمُ المَقامات

وهذا الفرَحُ من أعمالِ القلوب، وهو من أعظَمِ مقاماتِ الإيمان، وهنا يُمسِكُ ابنُ تيميَّةَ قلَمَه ليدوِّنَ معلَّقةَ الفرَحِ الخالد، ويطرِّزَ معانيَ قلَّ أن تُدرَكَ، فيقولُ رحمه الله:

أرفَعُ درجاتِ القلوب فرَحُها التامُّ بما جاء به الرسولُ ﷺ وابتهاجُها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ ﴾ [الرعد: آية ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس: آية ٥٨].

ففضلُ اللهِ ورحمتُه: القرآنُ والإيمان، مَن فَرِح به فقد فرح بأعظمِ مفروحٍ به، ومَن فَرِح بغيرِه فقد ظلم نفسَه، ووضَعَ الفرَحَ في غير موضعِه[1].

إنَّ للفرَحِ في فلسفة هذا الإمام موضعًا لا ينبغي أن يوضَعَ قبله

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام(١٦/ ٤٩).

ولا بعده! إنَّه الفرَحُ بالقرآنِ والإيمان، إنَّه الاستلذاذُ بترتيل آياته، إنَّه الشوقُ إلى الصلاة، وإلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وإلى كلِّ ما جاء به القرآنُ، مِن عطرٍ يُحِيل حياةَ المسلم إلى شذًى تتصعَّدُ أدخِنتُه الفاخرةُ في أرجاء الكون الفسيح.

لذةُ القلبِ

ولكن ما الفرح؟

يجيبُنا إمامٌ من أئمةِ القلوب، وعارفٌ من عارفي طرائقِ النفوس ودهاليزِها المتشعِّبة! ابنُ قيِّم الجوزية، يقولُ رحمه الله: (الفرَحُ لذةٌ تقع في القلب بإدراكِ المحبوب، ونيلِ المشتهى، فيتولَّدُ مِن إدراكِه حالةٌ تُسمَّى الفرَحَ والسرور، كما أنَّ الحُزْنَ والغمَّ مِن فقدِ المحبوب، فإذا فقَدَه: تولَّدَ مِن فقدِه حالةٌ تُسمَّى الحزنَ والغمَّ، وذكَرَ سبحانه الأمرَ بالفرَحِ بفضلِه وبرحمته عَقِيبَ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: آية ٥٧]، ولا شيءَ أحقُّ أن يَفرَحَ العبدُ به من فضلِ الله ورحمته التي تتضمنُ الموعظةَ، وشفاءَ الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة.. وما آتاها من ربِّها الهدى الذي يتضمَّنُ ثلَجَ الصدورِ باليقينِ وطُمَأنينة القلب، وسكون النفس إليه، وحياةِ الرُّوح به. و«الرحمة» التي تجلبُ لها كلَّ خيرٍ ولذة، وتدفع عنها كلَّ شرٍّ مؤلم، فذلك خيرٌ من كل ما يَجمَعُ الناسُ من أعراض

الدنيا وزينتِها، أي: هذا هو الذي ينبغي أن يُفرَحَ به، ومَن فَرِح به فقد فرح بأجلِّ مفروح به، لا ما يَجمَع أهلُ الدنيا منها، فإنه ليس بموضعٍ للفرَحِ، لأنه عُرْضةٌ للآفات، ووشيكُ الزوال، ووخيمُ العاقبة، وهو طَيْفُ خيالٍ زار الصَّبَّ في المنام، ثم انقضى المنام، وولَّى الطيفُ، وأعقَبَ مزارَه الهِجْرانُ)[1].

معرفة الحق

والقرآن هو الدليلُ الذي يوصِّلنا لمعرفة الله..

وهل هناك في الحياة أجملُ وأعظم من معرفة الله؟!

هل هناك نعيم باقٍ يملأ الحياةَ بسعادةٍ لا تنتهي كنعيم معرفة الله؟!

يقولُ شيخُ الإسلام رحمه الله:

«إن اللذةَ والفرحة وطِيبَ الوقتِ والنعيم الذي لا يمكن التعبيرُ عنه إنما هو في معرفةِ الله -سبحانه وتعالى- وتوحيدِه، والإيمان به، وليس للقلوب سرورٌ ولا لذةٌ تامّةٌ إلا في محبَّةِ الله، والتقرُّب إليه بما يحبُّه»[2].

لذا نفرَحُ بالقرآنِ، لأنه سبيلُنا لهذا النعيم..

وقائدُنا إلى هذه المعرفة..

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٤٨، ١٤٩) بتصرف.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام (١٦/ ١٦).

قال الإمام ابنُ القيِّم:

«مِن الناس مَن يَعرِفُ اللهَ بالجُود والإفضال والإحسان، ومنهم من يعرفه بالعفوِ والحِلْمِ والتجاوز، ومنهم من يعرفه بالبطشِ والانتقام، ومنهم من يعرفه بالعلمِ والحكمة، ومنهم من يعرفه بالعِزَّة والكبرياء، ومنهم من يعرفه بالرحمةِ والبِرِّ واللُّطف، ومنهم من يعرفه بالقَهْرِ والـمُلْكِ، ومنهم من يعرفه بإجابةِ دعوتِه، وإغاثة لَهْفتِه، وقضاء حاجته..

وأعمُّ هؤلاء معرفةً: مَن عرَفَه من كلامِه، فإنه يَعرِفُ ربًّا قد اجتمَعتْ له صفاتُ الكمال، ونعوت الجلال، منزَّهٌ عن المثال، بَرِئَ مِن النقائص والعيوب، له كلُّ اسم حسَنٍ، وكلُّ وصفُ كمالٍ، فعَّالٌ لِما يريد، فوق كل شيء، ومع كلِّ شيء، وقادرٌ على كل شيء، ومقيمٌ لكل شيء، آمرٌ ناهٍ، متكلِّمٌ بكلماتِه الدِّينية والكونية، أكبَرُ من كل شيء، وأجمَلُ من كل شيء، أرحَمُ الراحمين، وأقدَرُ القادرين، وأحكمُ الحاكمين، فالقرآنُ أُنزِلَ لتعريف عبادِه به، وبصراطه الموصِّل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه» [1].

ويقول رحمه الله:

«وأنت إذا تدبَّرتَ القرآنَ، أشهَدَك مَلِكًا قيُّومًا فوق سماواته، على عرشِه، يدبِّرُ أمرَ عباده، يأمر ويَنهى، ويُرسل الرسلَ، ويُنزل

---

(١) الفوائد (ص ٣٩٦).

الكتب، ويَرضى ويغضب، ويُثيب ويعاقب، ويُعطي ويَمنع، ويُعِزُّ ويُذِل، ويَخفِض ويَرفَع، يرى من فوق سبعٍ، ويسمع ويعلم السر والعلانية، فعَّال لِما يريد، موصوف بكل كمال، منزَّهٌ عن كل عيب، لا تتحرك ذرةٌ فما فوقها إلا بإذنِه، ولا تسقُطُ ورقةٌ إلا بعلمِه، ولا يشفع زهدٌ عنده إلا بإذنه، ليس لعبادِه من دونِه وليٌّ ولا شفيع»[1].

خوفٌ وفرَحٌ

المتأمِّلُ في كثيرٍ من الأخبار والقِصص التي تصفُ حالَ الذين يتأثّرون بكتاب الله، يجدُ أنها سلَّطتِ الضوءَ على جانبٍ واحد من هذا التأثُّر، وهو جانبُ الخوف والقُشَعْريرة والرهبة والخشية عند سماعِ الآيات، ولكنْ ثمَّةَ جانبٌ آخَرُ، وانطباع مختلف، تُحدِثُه الآياتُ في النفس، وتَصنَعه السُّوَرُ في الفؤاد، إنه جانبُ السرور العظيم، والفرح الكبير، والاستبشار والارتياح عند سماع القرآنِ وتلاوته.

يصفُ القرآنُ الحالينِ، فيقول تعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[الزمر: آية ٢٣].

---

(١) الفوائد،(ص ٨١).

يقول الطاهرُ بن عاشور:

«فإن المؤمنَ إذا سَمِع آياتِ الوعيد والتهديد يخشى ربَّه، ويتجنَّبُ ما حذَّرَ منه، فيقشعِرُّ جلدُهُ، فإذا عقَّبَ ذلك بآياتِ البِشارة والوعد، استبشَرَ وفَرِح، وعرَضَ أعمالَه على تلك الآيات، فرأى نفسَه متحلِّيَةً بالعمل الذي وعَدَ اللهُ عليه بالثواب، فاطمأنت نفسُه، وانقلَبَ الوجَلُ والخوف رجاءً وترقُّبًا»[1].

مسكِّنُ الأوجاعِ

وهذا القرآن العزيز مسكِّنٌ لأوجاعنا عند النوازل، مفرِّجٌ عن همومنا عند النوائب..

يقول صاحبُ كتاب «الآداب الشرعية»:

من المعلومِ أنه يُشرَعُ في أوقاتِ الشدائد قراءةُ شيءٍ يسكِّنُ النفسَ، كأن يقرأَ المتألمُ المفجوع آياتِ الحثِّ على الصبر، التي فيها ذِكْرُ ثواب الصابرين، وما أعَدَّه اللهُ لهم من الأجر والعطاء.

وفي كلامِ ابن عَقِيلٍ ما يقتضي ذلك، فإنه رحمه الله لما تُوفِّيَ ابنُه عقيل سنة عشرٍ وخمس مئة وعمره سبع وعشرون سنة، وكان تفقَّهَ وناظَرَ في الأصول والفروع، وظهَرَ منه أشياءُ تدلُّ على دِينه

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٩).

وخيره، حَزِن عليه، وصبرَ صبرًا جميلًا، فلما دُفِن جعل يتشكَّرُ للناس، فقرأ قارئ: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: آية ٧٨]، فبكى ابنُ عقيل، وبكى الناس، وضجَّ الموضعُ بالبكاء، فقال ابنُ عقيل للقارئ: «يا هذا، إن كان يهيجُ الحزنَ فهو نياحةٌ، والقرآن لم يَنزِلْ للنوحِ، بل لتسكينِ الأحزان»[1].

آثـارُ الفـرَحِ

إذا فَرِحْنا به، فإننا سنجعله رفيقَ حياتنا..

نُهرَعُ إليه كلما تكالَبتْ علينا الأوجاعُ..

إذا فَرِحْنا بالقرآنِ فإن لحظاتِ أُنْسِنا ناقصةٌ إذا لم تكُنْ آياتُه حاضرةً معنا.. تأمُّلًا وتفكُّرًا..

إذا كان القرآنُ مصدرَ سعادتِنا، فكلُّ المخاوف عبارةٌ عن أوهامٍ زائلة.. وكل المعكِّرات عبارةٌ عن حدَثٍ طارئ في حياتِنا، وسَرْعان ما يبتعد..

سنعيد ترتيبَ حياتنا عَبْرَ منهجِه القويم..

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٢٩٤).

وسنعيد ترميمَ ما بداخلنا عبر فهمِه وتدبُّره..

وسنهتف كلما شعَرْنا بتغيُّرِ حياتنا، وتجدُّد مسرَّاتنا..

أين نحن من هذا الفرح؟!

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فإننا سنمتثّل أوامرَه، ونتّبع نهجَه، ونسمو بمعانيه، ونرتقي بإرشاداته..

وها هو الإمام أحمدُ عليه -رحمة الله- في مجلسِه وبين تلاميذه، ويأتي سفيهٌ من السفهاء فيسُبُّه ويشتمُه ويُقذِعُه بالسَّبِّ والشتم، فيقول له طلابهُ وتلاميذه: يا أبا عبد الله، رُدَّ على هذا السفيهِ، قال: «لا واللهِ، فأين القرآنُ إذًا؟»[1].

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فإننا سنجد وقتًا لتلاوته، فلن نَجعَلَ التلاوةَ مَوْسمية، أو عند الأرَقِ فحسب!

بل ستكون تلاوتُه من أعمالنا اليوميةِ التي لا نستطيع التخلّيَ عنها، مهما كثُرتِ الـمُلهِيَاتُ والشواغل.

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِفإننا سنسعى لحفظِه، أو حفظِ ما نستطيع من سُوَرِه، وستتغلَّبُ على كل الصوارفِ والعوائق التي حالت دون تحقيقِ هذه الغاية العظيمة.

---

(١) هكذا عاشوا مع القرآن (ص٧٤).

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فإننا سنعتزُّ بمضامينه، وسنَفخَر بأحكامِه، وسنَجعَله منارةً نهتدي بها في جميعِ شؤون حياتنا.

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فسنجعله سفينةَ نجاةٍ نعبُرُ بها إلى ساحلِ النجاة.. نتجاوز به أهوالَ الشُّبَه الـمُضِلَّة، والفِتَن، والشكوك، والشهوات المفسِدة للقلب والحياة.

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فسنُحسِنُ مصاحَبتَه، وسنتخلَّقُ بأخلاقه، ونأتمر بأوامرِه، وننتهي عن نواهيه.

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فسنكون من أولئك الذين يجدون في كتابِ الله كلَّ شيء..

فلأحزانِهم آية.. ولأفراحهم آية..

يتصبَّرون بآية، وتوقِظُهم آية..

وتقودُهم الآياتُ إلى أهدافِهم الكبيرة، ولنجاحاتهم المبهرة..

يعيشون حياتَهم وكأنَّ اللهَ تعالى يكلِّمُهم في كل لحظة..

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فإنه سوف يهُزُّنا من الأعماقِ، ويثيرُ أشجانَنا، ويحرِّكُ مشاعرَنا..

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فإنه سيداوي جراحَنا، ويلملم شعَثَنا، ويمنَحُنا الصبرَ والسُّلوان..

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فسنعيش مع قصصِه، ونعتبِرُ بأمثالِه، ونأخذ الموعظةَ عند تأمُّلِ مصائرِ الصادقين، ومصارعِ الغابرين.

وإذا فَرِحْنا بالقرآنِ فإنه سيرتحل بنا إلى الآخرةِ.. إلى السَّعة المطلَقة.. إلى الخلود.. ويسمو بنا إلى الأعلى.. فيحدِّثُنا عن اللهِ عز وجل، وعن أسمائه وصفاته، وملائكته ومخلوقاته.



مِن القرآنِ عنِ القرآنِ

الآياتُ القرآنيةُ
التي تصفُ مكانةَ القرآن..
ومنزلتَه بين الكتب..
وتصف الخيرَ الذي جاء به..
والنورَ الذي أنار الحياةَ وجمّلها..
هي السبيلُ الأجمل لمعرفة
سرِّ الفرَحِ به..



مِن القرآنِ عنِ القرآنِ

إذا ما سألتَني عن هذا الفرَحِ، لماذا يكون؟ وكيف يكون؟ وعلى ماذا يكون؟ فلن أكونَ أقدَرَ علىِ الإجابة عن هذه الأسئلةِ من الإله الذي أنزَلَ هذا القرآن، وجعَلَ الفرَحَ به واجبًا من الواجباتِ حينما قال: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس: آية ٥٨]..

لن يصفَ القرآنَ واصفٌ كالربِّ الذي تكلَّمَ به، وأنزَلَه، وأراده أن يكونَ هدًى ونورًا ورحمةً للعالَمين..

إن الأخبَرَ بالكلام هو المتكلِّمُ به، والأعلَمَ بالقول هو قائله، والأكثر إحاطةً بالحديث هو ذاتُ المتحدِّثِ به، فإنْ شرَحَ المتكلِّمُ والقائل والمتحدِّثُ شيئًا من أسرار ما قاله وتحدَّثَ به، فعند ذلك توقَّفْ، وله فاستمِعْ، وبه فالتزِمْ، فإنَّه لا يحدِّثُك مثلُ عليم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: آية ١٤].

إنَّ حديثَ القرآن عن القرآن بالِغُ العظمة، باهر الأضواء، عجيب السَّبْك، تقرؤُه وكأنَّك تَعِيشُه، وتَسمَعُه وكأنَّه أنوارٌ تحيطُ بك من كل جانب..

وإنَّ الذي لا يتمكَّنُ من رؤية الفرَحِ بالقرآن في كلام القرآن، سيَعجِزُ عن معرفةِ هذا الفرح، وعن استبصارِه في كلام غيرِ الله تعالى.

فلنتفيَّأْ ظلالَ آياتِ الكتاب العزيز، لنُدرِكَ شيئًا من الفرَحِ بالقرآن، الفرَحِ الذي يريدُك اللهُ أن تقدِّمَه على كل ما يُجمَعُ في الحياةِ من الثَّروات الطائلة، والمناصب الرفيعة، والحياة الهانئة، فإنَّه ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [النساء: آية ٥٨]..

رُبَاعيَّةُ الفرَحِ

هنا آيةٌ تشكِّلُ تصريحًا مهمًّا يُعلَنُ عنه في بدايةِ علاقة الإنسان بالقرآن الكريم، يقول الحقُّ سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء: آية ٥٧]..

يقول الطاهر بن عاشور: «عبَّرَ عنه بأربعِ صفات، وهي أصولُ كمالِه وخصائصُه، وهي: أنه موعظةٌ، وأنه شفاء لِما في الصدور، وأنه هدًى، وأنه رحمةٌ للمؤمنين»[1].

إنَّ عظمةً ما، وبهاءً ما، وفرَحًا ما: قادمٌ إليكِ أيَّتُها الإنسانيةُ المنهكَة، أيتُها الإنسانية التي لَفَّكِ الظلامُ حِقَبًا متوالية، أيتُها الإنسانية التي نهشك الظُّلْمُ والتغطرس والطُّغيان..

لقد جاءت الموعظةُ والشفاء والهدى والرحمة.. وما الذي يمكنه أن يكونَ فوق هذا؟!

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢).

فلتتهيَّأ البشريةُ إذًا للفرَحِ الأبدي، والسرور السَّرمدي، فكتابٌ تكلَّمَ خالقُها بكل حرفٍ فيه، بل وبكل حركة فيه: ها هو ذا قادمٌ من الأعلى، بل من أعلى الأعلى، ليغيِّرَ خريطةَ مفاهيمِ الكون، وليُعِيدَ ترتيبَ أولوياتِ عقل الإنسان الضائع في دروب المادية البحتة، والانتهازية البغيضة، والطغيان الذي تجاوَزَ كلَّ حدود، ويعيدَ صياغةَ تفكيره، ويحدِّثَهُ عن النعيم القادم، والمباهج التي يحارُ دون إدراكها الخيالُ..

نــــور

يقـول الحـقُّ -سـبحانه وتعـالى- عـن هـذا الكتـابِ العظيم: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: آية ١٧٤]..

وعندما تتخيَّلُ الظلماتِ التي كانت تَقبَعُ فيها البشريةُ، تَعلَمُ جليًّا ما معنى «نور»! ثم تعلم أيضًا ما معنى «مبين».

إنَّه نورٌ واضح جليٌّ، تنقشع له طبقاتُ الظلام الحالك التي تلُفُّ العالمَ!

يقول الشيخُ ابن عثيمين -رحمه الله- عن هذا النور: «به يستنيرُ القلبُ، والوجه، وفي القبر والبعث، فالقرآن كلُّه نور»[1].

ولهذه الأنوارِ انعكاساتٌ يَلمَحُها الصالحون في وجوهِ بعضهم،

(١) سير= تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢/ ٥٢٩).

عن إسماعيلَ بن مسلم قال: «قيل للحسن: ما بال المتهجِّدين أحسَنُ الناسِ وجوهًا؟ قال: لأنهم خلَوْا با لرحمنِ، فألبَسَهم نورًا من نورِه»[1].

خلَوْا به يَتْلون كتابَه، ويتدبّرون النورَ المبين، وباتوا سُجَّدًا وقيامًا، فكانت المكافأةُ العاجلة أنوارًا تُرى، وهالاتٍ تُتخايل!

فالفرَحُ بالقرآن فرَحٌ بنورِه الذي أضاء الحياةَ..

فعرَفَ مَن حمَلَ هذا النورَ حقيقةَ الأشياء..

فكبُرتْ عنده أشياءُ كان يراها صغيرةً..

وتضاءلت أخرى كادت تحجُبُ عنه ضوءَ الشمس في يومٍ من الأيام..

بهذا النورِ تتضحُ مسارات الطريق..

وتَظهَرُ تعرُّجاتُه الـمُخِيفة، وتُعرَف منحنياتُه الخَطِرة..

فيعبُرُه صاحبُ القرآن بسلام، ويمضي لوجهتِه الصحيحة بكل أمان..

بينما يسقُطُ الكثيرُ في أسهلِ الطرقات..

---

(١) فضل قيام الليل والتهجُّد للآجري (ص ٩٣).

يأتي النورُ المبهج، فتغادِرُ المخاوفُ قلوبَ أهل القرآن..

وتزُولُ الأوهامُ من نفوسِ الذين عاشوا مع القرآن..

بينما يَغرَقُ الكثير في وَهْمٍ عارض، وخوفٍ متخيَّل..

ويسطع نورُ القرآن..

لتُعرَفَ حقيقةُ الدنيا، وزوالُها السريع، وبقاؤها المؤقَّت..

فتسكُنَ النفسُ المضطربة..

فلا شيءَ يستحق الأسى..

يُشرِقُ نورُ القرآن على القلوب المنكسِرة..

فيُخبِرُها بعطاءٍ قادم، ويمنحها الصبرَ والعزاء والسُّلوان..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: آية ١٧٤]..

شفاء

ويحدِّثُنا القرآنُ الكريم عن سببٍ من أسباب هذا الفرَحِ القرآنيِّ الفريد، فيقول سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: آية ٤٤]..

القرآن أعظَمُ ما رُتِّبتْ به بَعْثرةُ الأرواح، وأجَلُّ ما هُذِّبَ به شعَثُ السرائرِ، وأنقى ما جُمِع به شتاتُ القلوب..

قال ابن القيم رحمه الله:

«فالقرآن هو الشفاء التامُّ من جميع الأدواء القلبية والبَدَنية، وأدواءِ الدنيا والآخرة، وما كلُّ أحدٍ يؤهَّلُ ولا يوفَّقُ للاستشفاء به، وإذا أحسَنَ العليلُ التداويَ به، ووضَعَه على دائِهِ بصدقٍ وإيمان، وقَبولٍ تام، واعتقاد جازم، واستيفاءِ شروطه: لم يقاوِمْهُ الداءُ أبدًا»[1].

تأمَّلْ كيف يصف ابنُ القيمِ الداءَ ويجعله ضئيلًا في مقابلِ آيات هذا الكتاب العظيم! كيف يجعلُ فيروساتِ الداء تموت، والخلايا الخبيثة تهرُبُ من تَرْدادِ ذلك الشفاء العجيب.. ثم يكملُ رحمه الله شارحًا سببَ عدمِ مقاومة المرضِ لهذا الشفاء: «وكيف تقاوِمُ الأدواءُ كلامَ رب الأرض والسماء، الذي لو نزَلَ على الجبال لصدَعَها، أو على الأرض لقطَعَها؟! فما مِن مَرَضٍ من أمراضِ القلوب والأبدان إلا وفي القرآنِ سبيلُ الدَّلالة على دوائه وسببِهِ، والحِمْيةِ منه لمن رزَقَه اللهُ فَهْمَها في كتابه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] [العنكبوت: آية ٥١].

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٢٢).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٢٣).

شَـــرَفٌ

وِمن أعجَبِ الآيات التي تفسِّرُ شيئًا من أسرارِ فرَحِ المؤمن بالقرآن قولُهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: آية ٤٤]!

يقول السعديُّ -رحمه الله- عن هذه الآية: «فخرٌ لكم، ومَنقَبة جليلة، ونعمة لا يقادَرُ قَدْرُها، ولا يُعرَفُ وصفُها»[1].

إنَّه الشرَفُ والرفعة والمكانة! تُذكَرون به أبدَ الدهر، ويجعَلُكم فوق الأمم إن تمسَّكتم به.

يا محمَّدُ، أخبِرْ قومَك المحبِّين للشرَفِ أنَّ هذا القرآنَ هو الشرَفُ الذي ما بعده شرَفٌ، والمكانةُ التي دونها كلُّ مكانة!

وكلُّ شرَفٍ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم شرَفٌ لأمَّتِه، فهو قدوتُها، وإمامها، وقائد مسيرتها.

فكيف لا يُفرَحُ بكتابٍ يقول عنه الربُّ: إنَّه الشرَفُ والذِّكر؟!

وقريبٌ من الشرَفِ: المجدُ، يقول سبحانه: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ [البروج: آية ٢١]..

ويتحدَّثُ الشيخُ محمد العثيمين -رحمه الله- عن هذا المجدِ، فيقول: «ذو عظمةٍ ومجدٍ، ووصفُ القرآنِ بأنه مجيدٌ لا يعني أن

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٦٦).

المجدَ وصفٌ للقرآنِ نفسِه فقط، بل هو وصفٌ للقرآن، ولِمَن تحمَّلَ هذا القرآنَ، فحمَلَه، وقام بواجبِه من تلاوتِهِ حقَّ تلاوته، فإنه سيكون لهم المجدُ، والعِزة، والرفعة»[1].

حقُّ اليقينِ

ومِن أسبابِ الفرَحِ بالقرآن كونُهُ حقَّ اليقين، يقولُ سبحانه عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: آية ٥١]..

وما الذي يَعصِفُ بملياراتِ البشر غيرُ العَماءِ والضلالِ عن الحق؟! أفلا يَفرَحُ قومٌ معهم حقُّ اليقين؟! معهم أعلى درجاتِ الحق، وأعلى مراتب التيقُّن؟!

يقول السعديُّ رحمه الله:

«أعلى مراتبِ العلم: اليقينُ، وهو: العلمُ الثابت الذي لا يتزلزلُ ولا يزول.

واليقينُ: مراتِبُه ثلاثةٌ، كلُّ واحدةٍ أعلى مما قبلها:

أولها: علمُ اليقين، وهو: العلمُ المستفاد من الخبَر.

ثم عينُ اليقين، وهو: العلم الـمُدرَك بحاسَّةِ البصر.

ثم حقُّ اليقين، وهو: العلم المدرك بحاسَّةِ الذوق والمباشَرة.

(١) تفسير العثيمين: جزء عم (ص ١٤٢).

وهذا القرآنُ الكريم بهذا الوصفِ، فإنَّ ما فيه من العلومِ المؤيَّدة بالبراهينِ القطعية، وما فيه من الحقائقِ والمعارف الإيمانية، يحصُلُ به لِمَن ذاقه حقُّ اليقين»[1].

هدايـــة

ومِن أعظمِ أسباب وجوبِ الفرَحِ بهذا القرآنِ: الفرَحُ بأنَّ اللهَ أنزَلَه، والفرح بالإيمانِ به، والفرح بتلاوته، كونُه هدايةً، وهل يحتاجُ الضائعُ في دروب الحياة إلى أكثَرَ من هدايةٍ، وإرشاد، ودَلالة، وتوفيق؟!

وهل يحتاجُ الذي أنهَكَهُ التعَبُ وأرهَقَه العطَشُ إلى أكثَرَ من واحةٍ غنَّاءَ، عَذْبةِ الماء، جميلة المنظر، تهدأ فيها أنفاسُه، وتسكُنُ في جنَباتها نفسُه، ويُرْوي عطَشَهُ من سلسبيلِها العَذْبِ؟!

يقول الحقُّ سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: آية ٩]..

وتأمَّلْ: هو لا يَهدي للطريقِ القيِّم، بلْ للأقوم! فلا أكثَرَ اعتدالًا، ولا أدَقَّ استقامةً مِن العاملِ بالقرآن الكريم، مِن الذي يعيش مع الآيات، وبالآيات..

ويقولُ سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢]..

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٨٥).

ثم انظُرْ إلى ما يَتبَعُ هذه الهدايةَ!

إنَّ ما يَتبَعُها لَأسبابٌ أخرى للفرَحِ، ومناسباتٌ مبهِجة للسرور!

إنَّها البشريات، والرحمات، والمواعظ:

يقول سبحانه: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: آية ٢]..

ويقول: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾[لقمان: آية ٣]..

ويقول: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: آية ١٣٨]..

فكم مِن الخيرِ ينتظرُك إذا ما أمسَكْتَ بالمصحف!

وكم ينتظِرُك من البُشْريات والرَّحَمات والمواعظ التي تَغسِلُ قَتامةَ قلبِك إذا ما شرَعْتَ في قراءة وِرْدِك اليومي!

كتابٌ مبارَكٌ

ومِن الأسبابِ التي تجعلنا نفرح بالقرآنِ: أنه كتابٌ مبارَكٌ..

يقول تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام: آية ٩٢]..

ويقول: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٥]..

ويقول: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٥٠]..

ويقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: آية ٢٩]..

قال الشنقيطيُّ ـ رحمه الله ـ:

«فمَن تعلَّمَ القرآنَ وعَمِل به، غمَرتْهُ الخيراتُ في الدنيا والآخرة، وكان بعضُ علماءِ التفسير يقول: اشتغَلْنا بالقرآن، فغمَرتْنا البركاتُ والخيرات في الدنيا، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾»[1] [ص: آية ٢٩].

فالقرآن مبارَك في مصدرِه، لأنه كلامُ الله، ومبارَك في مكانِه في اللَّوح المحفوظ، ومبارَك في حاملِه جبريل عليه السلام، ومبارَك فيمَن تلقَّاه، وهو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ومبارَك في علومِه ومعارفه، ومبارَك في تشريعاتِه ومناهجه ومبادئه، ومبارَك في رسالته ومهمَّتِه وأغراضه، ومبارَك في أثَرِه وتأثيره وآثاره ..

(١) العذب النمير (١/ ٧).

ذِكْرَى وتذكرة!

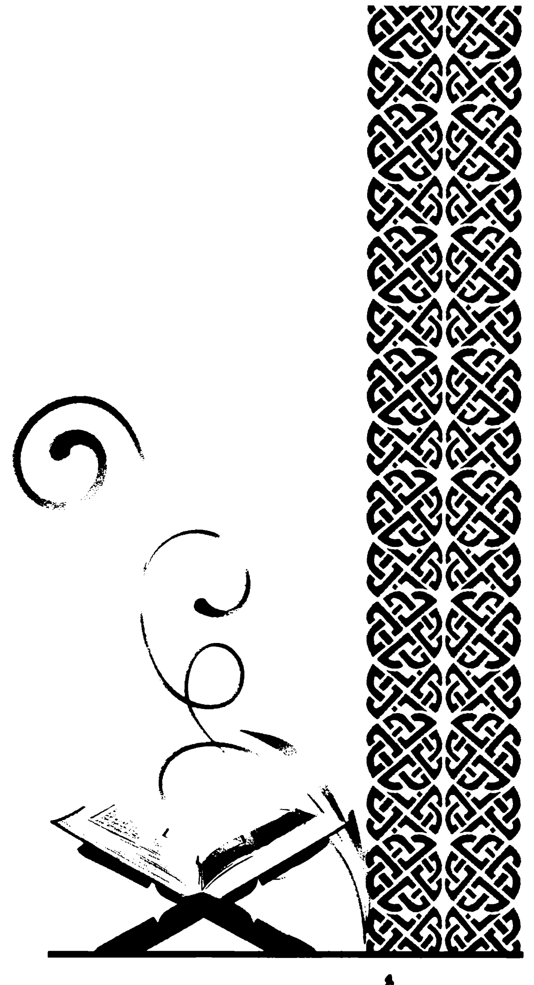
يقولُ الذي أنزَلَ هذا القرآنَ عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: آية ٤٨]، ويقول: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: آية ٥٤]..

فالقرآنُ منبِّهٌ ومذكِّرٌ لك! يُعِيدُك كلما ابتعدتَ، ويزجُرُك كلما اقترفتَ، ويوقِظُك كلما غفَلْتَ، ويدلُّك على المسارِ الصحيح إذا انحرفتَ، ويَشفي ما في الصدورِ من أمراضٍ وأدناس وأرجاس، ليعودَ لها نورُها، يقول الشيخُ السعديُّ -رحمه الله- عن معنى التذكرة: «يتذكَّرون به مصالحَ دِينهم ودنياهم، فيَعرِفونها، ويَعمَلون عليها، يذكِّرُهم العقائدَ الدِّينية، والأخلاقَ الـمَرْضيَّة، والأحكامَ الشرعية، فيكونون من العلماءِ الربَّانيين، والعُبَّاد العارفين، والأئمة الـمَهْديِّين»[1].

فهل بعد هذا القدرِ من الأنوارِ الكاشفة التي أتت مِن بينِ حروفِ المصحف نفسِه، وانبعَثتْ من خلالِ آياته العظيمة معنًى لتساؤلِك عن هذا الفرَحِ: «لماذا يكون؟ وكيف يكون؟ وعلى ماذا يكون؟»؟!



(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٨٥).



مِن السُّنةِ عن القرآنِ

فإنَّ هذا القرآنَ سبَبٌ طرَفُه بيد الله وطرَفُه بأيدكم، فتمسَّكوا به

من السنة عن القرآن

يزداد الفرحُ بهذا الكتابِ العظيم حين نتأمَّلُ الأحاديثَ النبوية التي تُخبِرُ عن العطايا والهبات العظيمة لِمَن اقترَبَ من القرآنِ، وصَحِبَ القرآنَ، وتعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَه..

وكلامُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم عن القرآنِ كلامُ العارفِ به، المحبِّ له، المطَّلعِ على أسراره، ومن أجلِ هذا كان لحديثِه عن القرآن لونٌ خاص، ودلالة مميَّزة، وإيحاء فريد، فهو الذي عاش بالقرآنِ ومع القرآن حتى أصبَحَ قرآنًا يمشي على الأرض.

فَرَحُ الصُّحْبَةِ

يأخذ القرآنُ صاحبَه لأعلى المنازلِ، فيرتقي به لجِنانٍ لا حدودَ لجمالِها..

لقد صَحِبَ القرآنَ وعاش معه وها هو ذا يرى أثَرَ هذه الصحبةِ..

يقول ﷺ: **«يُقال لصاحبِ القرآن: اقرَأْ، وارتقِ، ورتِّلْ كما كنتَ ترتِّلُ في الدنيا، فإن منزلتَك عند آخرِ آيةٍ تقرؤها»**[1].

(1) أخرجه أبو داود (١٤٦٤).

ولكي تُدرِكَ فضلَ هذه الصحبةِ، وثمرةَ هذه العَلاقة الممتدة مع القرآن، تأمَّلْ هذا الحديثَ، يقول صلى الله عليه وسلم: «يُؤتى يومَ القيامة بالقرآنِ وأهلِه الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدُمُهُ سورةُ البقرة وآلِ عمران، تُحاجَّانِ عن صاحِبِهما»[1].

هل تأمَّلتَ جمالَ هذه الكلمة «صاحِبِهما»؟!

وبَهاء «تُحاجَّانِ»؟!

لقد كانت الشواغلُ كثيرةً، ولكنَّ صاحبَ القرآن لم يُعلِنِ البُعْدَ..

ولم ينصرِفْ، ولم يلتفِتْ..

فكانت العاقبةُ الحميدة، والجائزةُ الثمينة..

والفرحةُ الكبرى في ذلك اليومِ الرهيب.

وهذه الصحبة تُذكَر في حديث آخر بطريقة أخرى، تشعّ جمالًا، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله أهلين من الناس» قال: قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله، وخاصته»[2] . فهم أهل الله، بل خاصّته الذين قرّبهم إليه، وأدناهم منه.

(١) أخرجه مسلم (١٣٩١).

(٢) مسند أحمد ط الرسالة (١٩/ ٣٠٥)

بِشــارةٌ

وكثيرًا ما يبشِّرُ صلى الله عليه وسلم صحابتَه، ويُخبِرُهم بفضلِ القرآن، ومكانتِه العالية، ليعيشوا في ظلالِه، وليتذوَّقوا آياتِه، وليَفرَحوا بنصوصِه، وليُدرِكوا هَدْيَه:

عن أبي شُرَيحٍ ﵁ قال: "خرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ، فقال: **«أبشِروا وأبشِروا، أليس تَشهَدون أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنِّي رسولُ الله؟ قالوا: نَعم، قال: فإنَّ هذا القرآنَ سببٌ طرَفُه بيدِ الله وطرَفُه بأيدكم، فتمسَّكوا به، فإنكم لن تَضِلُّوا ولن تَهلِكوا مِن بعدِه أبدًا»**[1].

خــيرُكم

وهنا نصٌّ في غايةِ الوضوحِ، مختصَرُ الكلمات، يملأ القلبَ فرَحًا بهذا القرآنِ الكريم، وبتعلُّمه وتعليمِه، يقول ﷺ: **«خيرُكم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَه»**[2].

يقول أحدُ معلِّمي حلقاتِ القرآن: «كلما راودَتْني نفسي على تركِ تعليم القرآن، لاح لي هذا النصُّ المفرِح، فكان محفِّزًا على البقاء والاستمرار».

---

(١) صحيح ابن جبان (١٢٢).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

مع السَّفرة

عاشوا مع القرآن، وبذَلوا لأجلِه الكثيرَ من الجهدِ، والوقت، والتعلُّم، فجوَّدوا تلاوتَه، وأتقَنوا مخارِجَه وحِفظَه، فكان لهم العطاءُ المذهل، وكانت لهم المنزلةُ العالية:

روى البخاري ومسلم أنّ النبي ﷺ قال: «**الذي يقرأ القرآنَ وهو ماهرٌ به مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرة**».

لم يُخبِرْ صلى الله عليه وسلم أنهم مع الأتقياءِ، أو مع الصالحين..

أخبَرَ أنهم مع السَّفَرة، الكِرام، البَرَرة، والسَّفَرة الكرام: هم الملائكةُ الذين يأتون من عندِ الله تعالى إلى الأنبياء بالرسالات، فالملائكةُ -عليهم السلام- هم رسلُ اللهِ إلى أنبيائه.. ولأنهم يسافِرون بين اللهِ وبين الأنبياء.

والمعيَّة التي في هذا الحديثِ: «مع الكِرام السَّفَرة» يقول عنها أهلُ العلم: إنها تحتمِلُ أن يكونَ لقارئ القرآن منازلُ يكون فيها رفيقًا للملائكة، الذين هم السَّفَرة، لاتصافِه بصفاتهم؛ لأنهم هم الذين حمَلوا كتابَ الله، وحمَلوا هذا القرآنَ وبلَّغوه، فقارئُ القرآن يَحمِل هذا القرآنَ في جوفِه، ويَحفَظه، ففيه شبَهٌ بهؤلاء السَّفَرة، فهو يَعمَل بعملهم، ويسلُكُ مسلَكَهم، ويتّصف بصفاتهم، ومَن اتصَفَ بصفاتِ قومٍ فهو معهم.

والمرءُ يُحشَرُ مع مَن أحبَّ، ولهذا وصَفَ الحديثُ القرَّاءَ المهَرةَ الحافظين المتقِنين بأنهم مع السَّفَرة الكِرام البَرَرة.

عَبَقٌ

ويَفرَحُ قارئُ القرآن بكتابٍ يجمِّلُ رُوحَه، ويطيِّبُ حياتَه، فيجعَلُه الأجملَ والأزكى، يقول ﷺ: **«مثَلُ المؤمنِ الذي يقرأ القرآنَ مثَلُ الأُتْرُجَّة، رِيحها طيِّب، وطَعْمُها طيِّب، ومثَلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآنَ مثَلُ التمرة، لا ريحَ لها، وطَعْمُها حُلْوٌ، ومثَلُ المنافق الذي يقرأ القرآنَ مثَلُ الرَّيحانة، ريحُها طيِّب، وطَعْمُها مُرٌّ، ومثَلُ المنافق الذي لا يقرأ القرآنَ كمثَلِ الحنظلةِ، ليس لها ريحٌ، وطَعْمُها مُرٌّ»**[1].

رِفْعةٌ

الذي عاش مع القرآنِ سيكون مختلفًا عن الآخرين..

ستُحيطه البركاتُ، والرَّحَمات، والأفراح..

يقول ﷺ: **«إن اللهَ تعالى يرفَعُ بهذا القرآنِ أقوامًا، ويضعُ به آخرين»**.[2]

(١) رواه البخاري (٥١٣٤)، ومسلم (١٣٨١).
(٢) رواه مسلم (١٤٠٧).

يقول ابن حجر رحمه الله: «ورفعةُ الدرجاتِ تدلُّ على الفضل؛ إذ المراد به كثرةُ الثواب، ورِفعتُها تشملُ المعنويةَ في الدنيا، بعلوِّ المنزلة، وحُسْنِ الصِّيت، والحِسيةَ في الآخرة، بعلوِّ المنزلة في الجنة»[1].

شــفاعة

في لحظةٍ حاسمة..

وفي وقت عصيب..

وبعد انتظارٍ، وخوف، وترقُّب..

يأتي القرآنُ ليُنقِذَ صاحبَه من تلك الأهوال..

يقـول ﷺ: **«اقـرؤوا القـرآنَ، فإنـه يـأتي يـوم القيامـة شـفيعًا لأصحابه»**[2].

أجــــوز

ويملأ الفرحُ بالقرآن قلوبَ الذين يتأمّلون هذا الحديثَ المذهل الذي يُخبِرُ بكنوزِ القرآن التي لا تَنفَدُ، ولو كثُرَ المغترِفون، وبمَعِينه الذي لا ينضُبُ، ولو كثُرَ الشاربون.

---

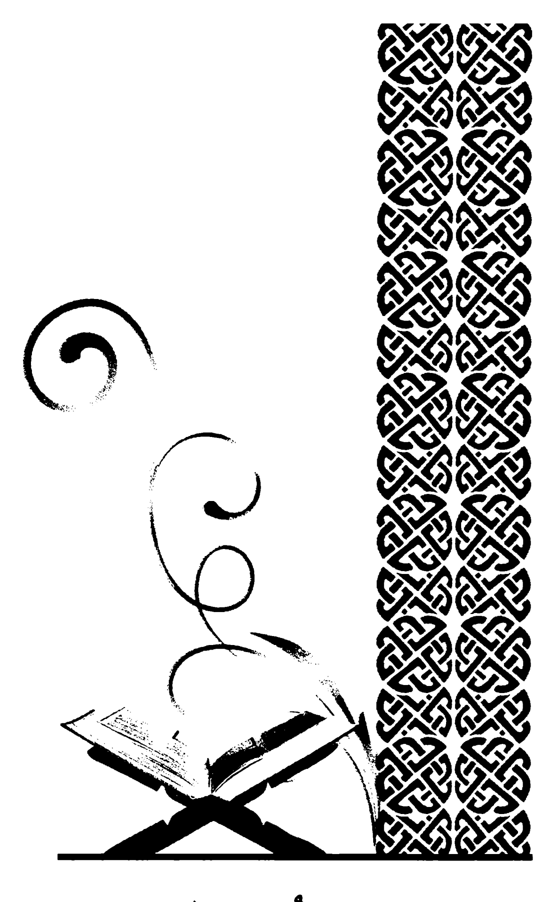
(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ١٤١).

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٤).

يقول ﷺ: «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسَنةٌ، والحسنة بعَشْرِ أضعافها، لا أقول: (الم) حرفٌ، ولكن أَلِفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف»[1].



(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠).



فرحةُ نبيٍّ

ولأنه كتابٌ جاء لإسعاِده، وإزالةِ أوجاعه، فقد أنزَلَ الله عليه آياتٍ سكَنَ بها قلبُه المكلوم، وهدأتْ بسماعها رُوحُه المتوجِّعة..

فرحة نبي

لقد كان القرآن له عليه الصلاة والسلام سلوى وعزاء..

إنّ الله قدّر أن يعيش في بيئة اكتظّت بالسخرية، وامتلأت بالمستهزئين، وقد تضايقت طُرقات مكّة بعبدة الأصنام، ومعظّمي الأوثان!

إنّها حياةٌ تملأ القلب نكدًا، وتعاسة!

ولكنّه سبحانه أنزلَ على النبيّ صلى الله عليه وسلم كتابَ الأفراحِ والمسرّات، ليواجه به سيولَ القهقهاتِ الساخرةِ، والتفاصيلَ المؤلمة..

أنّه كتابُ الشفاءِ والنورِ والفرقانِ والهدى المبين..

أفـراحُ الغـارِ

تأسِرُني اللحظةُ الأولى لنزول الوحيِ..

عندما تجمَّلتِ الحياة..

وأشرَقتِ الدنيا، بنورِ القرآن..

قبل هذه اللحظةِ، لم يكُنْ في الأرض آياتٌ وسُوَر..

قبل هذه اللحظة الحاسمة، لم تَعرِفِ الدنيا شيئًا عن هذه المعجزة الخالدة..

لم يكُنْ بين يدَيِ الناس كتابٌ يُخبِرُ البشرَ عن الله..

وعن الإنسان..

وعن الحياة، والآخرة..

لقد نزَلَ القرآن «وتوقّف الكونُ مصغيًا لأولِ الرسائل القادمة من السماء إلى الأرض، وأول خيوطِ النور الإلهيِّ المتسلِّلِ عبر أبواب السماء العالية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: آية ١-٥]، هكذا قالها جبريلُ.. فما بَقِيتْ خليَّةٌ في جسدِ محمدٍ ﷺ إلا وأخبَتتْ، وما بقيت ذرَّةٌ في مساحات الكونِ الهائل إلا واستبشَرتْ.. إنها اللحظةُ التي تحوَّلَ فيها محمدٌ إلى النبي محمد، ومِن الرجُلِ الطيب الصادق الصالح الأمين إلى النبي العظيم ﷺ.. ومن أحدِ العالَمين إلى رحمةِ العالَمين»[1].

لقد فَرِح الحبيبُ ﷺ بالقرآنِ، وكيف لا تسكُنُ نفسُه ويطمئنُّ والقرآن "يقرِّعُ أعداءَه، ويسفِّهُ أحلامَهم، ويشتِّتُ نظامهم، ويذُمُّ آلهتهم، وهم رغم ذلك ناكصون عن معارضتِه، محجِمون عن مماثلتِه، يخادِعون أنفسَهم بالتشغيب والتكذيب، والإغراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا إلا قول البشر، إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين.. ثم رضُوا

(١) الرجل النبيل، علي الفيفي، (ص ٢١).

بالدَّنيئة فقالوا عن أنفسهم: قلوبنا غلف، وفي أكنة ممَّا تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" [1]؟!

لقد انتصَر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على كل أعدائه بهذا الكتابِ العزيز «فظلُّوا مقموعين مَدْحورين، يتجرعون مرارةَ الإخفاق، ويُهطِعون لقوارعِ التبكيت، ويُنغِضون رؤوسَهم تحت مقارعِ التحدي والتعيير، مع أنفَتِهم وعِزَّتِهم، واستكمال عُدَّتِهم، وكثرةَ خُطَبائهم وشعرائهم، وشيوعِ البلاغة فيهم، والتهابِ قلوبهم بنارِ عداوته» [2].

ولم تَبقَ معهم سوى السُّخريَّةِ التي لا قيمةَ لها، والادعاءِ الكاذب، ومن ذلك: أنهم أشاعوا في يومٍ من الأيام كَذْبةً، فصدَّقوها لغبائهم.. فجاءت سورةُ الضحى بأفراحِها الخاصة، وبمباهجها المذهلة، لتَفضَحَ هذه الكذْبةَ.

ما أبغضَكَ منذُ أحبَّكَ

حين أبطأ جبريلُ على رسولِ الله ﷺ، شعَرَ المشركون بأن المعركةَ انتهت، وأنّ الوحيَ سينقطعُ للأبد، لذلك جاءت عباراتُهم الساخرة، وكلماتهم الجارحة، فقالت امرأةٌ مِن قومه: ودَّعَ الشيطانُ

(١) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، (ص ٢٦١).
(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص ٦).

محمدًا، وقال آخَرون: لقد قلَاه ربُّه.

وبعد ترقُّبٍ وانتظار، جاءت سورةُ الضحى..

جاءت لتُخبِرَ عن استمرار الوحيِ، وبقاءِ الصلة..

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾..

للإمام القرطبيِّ عبارةٌ جميلة في تفسير هذه الآية، يقول رحمه الله:

«﴿وَمَا قَلَىٰ ﴾، أي: ما أبغَضَك ربُّك منذُ أحَبَّك»[1].

جاءت هذه السورةُ لتُخبِرَ عن عطاء إلهيٍّ يفُوقُ عطايا هذه الحياة..

إنه عطاءٌ ليس فيه بؤسٌ، ولا تُفسِده المعكِّرات..

إنه العطاء والجزاء والثواب الأبديُّ..

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: آية ٤]..

جاءت ومعها هذه الآيةُ العظيمة: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: آية ٥]، التي قال عنها القاضي عياض: «وهذه آيةٌ جامعة لوجوهِ الكرامة، وأنواع السعادة والإنعامِ في الدارينِ»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٦٧).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، (ص ٣٦).

عند ذلك توارى الساخرون في سِكَكِ مكةَ وشِعابها.

فلقد كشَفتْ سورةُ الضحى أكاذيبَهم التي لا وزنَ لها ولا قيمة.

عند ذلك بدؤوا بتشغيبٍ من نوعٍ آخرَ، عَبْرَ فرضِ آرائهم واقتراحاتهم الجوفاء، فعندما لم يذُوقوا لذةَ القرآن، ولم تَعرِفْ أرواحُهم حقيقتَه الباهرة، قالوا بتعجُّبٍ ممزوجٍ بغباء: لماذا لا يَنزِلُ القرآنُ على محمدٍ جملةً واحدة؟!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾..

يتحدثُ الإمام السُّيوطيُّ -رحمه الله- عن طريقةِ نزول القرآن، فيذكُرُ بعضَ الأسرار التي عجَزتْ عقولُهم الصغيرة عن معرفتها، ويصف شيئًا من المباهجِ التي نالت الحبيبَ صلى الله عليه وسلم بنزول القرآنِ بهذه الطريقة، فيقول:

«الوحيُ إذا كان يتجددُ في كل حادثة، كان أقوى للقلب، وأشَدَّ عنايةً بالمرسَلِ إليه، ويستلزم ذلك كثرةَ نزولِ الملَكِ إليه، وتجدُّدَ العهدِ به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنابِ العزيز، فيحدُثُ له من السرورِ ما تقصُرُ عنه العبارة»[1].

---

(١) الإتقان للسيوطي (١/ ٤٢).

ورغم هذا العِداءِ، وهذا المكر، وهذا القُبْحِ، كان قلبُ الحبيب يتمزقُ ألمًا عليهم، ويخشى عليهم من العقاب والعذاب.

فيا لجمالِ قلبه..

ويا لروعةِ رُوحه..

ففي اللحظة التي كانوا يصِفُونه فيها بأبشَعِ الأوصاف، كان قلبُهُ يتألّم عليهم، ويتمنّى لهم النجاةَ، بل لم تكُنْ أمنيَّةً فحسب، فلقد كاد يُهلِكُ نفسَه حسرةً على تكذيبِهم له، وكفرهم بما جاء به.

فحين أمَره اللهُ بتبليغ الرسالة، وإخراجِ الناس من ظلماتِ الكفر إلى واحة الإيمان، بذَلَ ما يستطيع، وسعى بكلِّ طاقته لإنقاذ الناس من حُفَرِ جهنَّمَ التي لا تَشبَع، فسَمِع سُخريَتَهم، وناله أذاهم، وكلما قرأ عليهم شيئًا من هذه الآيات المبهِرة التي معه، بدؤوا بالصُّراخ، والتصفيق، والتشويش..

فتوجَّعَ صلى الله عليه وسلم، وحَزِن، وأصابه الهمُّ، ولو بحَثْنا عن وصفٍ لهذا الوجعِ، فلن نجد أبلَغَ من قولِ الله له: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: آية ٣].. يقول قتادة: «لعلَّكَ من الحرصِ على إيمانهم مُخرِجٌ نفسَك من جسدِك!»(١)

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٩/ ٣٣٠)

ولأنه كتابٌ جاء لإسعاده، وإزالةِ أوجاعه، فقد أنزَلَ اللهُ عليه آياتٍ سكَنَ بها قلبُه المكلوم، وهدأتْ بسماعها رُوحُه المتوجِّعة..

لقد جاءت هذه الآياتُ لتُخبِرَه بحقيقةِ هؤلاء المعاندين، وتدعوَه أن يُعرِضَ عنهم، ويتوقَّفَ عن الحسراتِ التي هشَّمتْ فؤادَه الطاهر..

لقد أخبرته الآياتُ بما في أعماقهم:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٥]..

وبأنهم لا يَسمَعون: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: آية ٤٢]..

ولا يُبصِرون: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: آية ٤٣]..

فكأنها تقولُ له: دَعْهم، والتفِتْ لرسالتك الأسمى..

دَعْهم.. فهم قُطَّاعُ طريقٍ لا يستحقون أن تضيِّعَ العمرَ معهم..

لقد ختَمَ اللهُ على قلوبهم..

وأعمى أبصارَهم..

وأصَمَّ آذانهم..

فكيف يصل الحقُّ إلى أرواحهم؟!

دَعْهم.. ولا تُفسِدْ حياتَك، ولا تُهلِكْ نفسَك حُزْنًا على ضلالتِهم، وكفرِهم بالله، وتكذيبِهم لك..

لقد أعمى الحسَدُ بصيرتَهم، وصَدَّهم الكبرياءُ عن اتباعِ الحق الذي جئتَ به..

دَعْهم.. فالكون كلُّه متعطِّشٌ لرسالتك وهدايتِك، وللنورِ الذي معك..

لو تأتينا أكثَرَ

كان صلى الله عليه وسلم يشتاق إلى نزولِ الوحيِ، ويتألّم كلما تأخَّرَ نزولُ جبريلَ بالقرآن، وكيف لا يشتاق لأُنسه، وللرَّوح الذي كان يأتي من جهة السماء؟

فقال لجبريلَ -عليه السلام- يومًا: «لو تأتينا أكثَرَ مما تأتينا» توحُّشًا لفِراقه، وليطمئنَّ قلبُه بنزولِه، فأنزَلَ اللهُ تعالى على لسان جبريلَ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: آية ٦٤]، أي: ليس لنا من الأمر شيءٌ، إن أُمِرْنا ابتدَرْنا أمرَه، ولم نعصِ له أمرًا[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٤٩٧).

ولك أن تتلمّس ما في عبارة «لو تأتينا أكثر مما تأتينا» من أفراح اندسّت في حناياه عليه الصلاة والسلام بهذا الكتاب العزيز الذي ينزل به جبريل عليه السلام.

كفَيْنـــاك

«التفتت النفوس المترعة بالأوهام، والتي مزقها حبّ التزعّم والسيطرة، فإذا برجل لم يجلس في مجالسهم المتجبرة يومًا يزعم زعمًا غريبًا!

لم يزعم أنّه سيد، أو رئيس قبيلة، أو قائد عسكري، أو شاعر فذ! لقد زعم أنّ الله الذي في السماء اختاره من بينهم ليوصل إليهم رسالة مكوّنة من ست مئة صفحة، اسمها القرآن!

إن الرؤوس التي أثملها التفاخر بالأحساب، والطعن في الأنساب لم تتحمّل مثل هذا القول، بل لم تستطع أن تضعه على طاولة النقد والتشريح..

لقد رأوا أن هذه الدعوة أضعف من أن يتجيّشوا ضدّها، فارتاحوا إلى مزاولة السخرية، فهي هشّة ـ في أعينهم ـ بحيث تسقطها أسخف نكتة، فأخذ المستهزئون يكيلون للنبي ﷺ النكات، صباح مساء، فما إن يداهم مجالسهم بدعوته الناصعة حتى يعلو صوت أحدهم: هذا ابن أبي كبشة يكلّم من السماء! وما

إن يسارّ بدعوته أحدًا حتى يصرخ شاب طائش: هذا غلام عبد المطلب يزعم أن الله أرسله!

مؤلم جدًّا عندما يحوّلك قومك إلى نكتة، يسقطون هيبتك من أعين الصغار، يجعلونك طرفة من طُرَفهم، هذا هو المؤلم، ولكنّ المضحك عندما يعتقد هؤلاء القوم أنّ النكتة ستهزّ جبلًا كمحمد.. وأنّ دعوة جاءت من فوق السماء السابعة ستضطرب لأجل "ابن أبي كبشة" أو "غلام عبد المطلب"!

يقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: آية ٩٥].. هؤلاء لا تأبه بهم كثيرًا، ولا حتى قليلًا.. أنا سأفعل بهم ما يستحقون، انصرف أنت إلى الأهم، انصرف إلى تلك القلوب العطشى، املأها بالنور الذي أنزلناه إليك»[1]

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾..

يا تُرى.. ماذا صنعتْ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ بفؤادِه ﷺ؟!

لقد جاءت هذه الآيةُ وقُرَيشٌ في أَوْجِ نشاطها العِدائيِّ له ولدعوته..

جاءت والاجتماعاتُ تُعقَد، والتُّهَم تُنسَج، والحَمْلة التشويهية على قَدَمٍ وساق..

(١) زمن محمد ﷺ، علي الفيفي (مخطوط)

هل تأمَّلتَ يومًا جمالَ هذه الكلمة «كفيناك»؟!

الذي خلَقَ السماواتِ والأرضَ يكفيك أولئك الضعفاءَ المهازيلَ..

الذي يدبِّرُ الأمرَ، ويفصِّلُ الآياتِ: يَكفيك ويَمنَعك ويحميك من كيدِهم، ومن مخطَّطاتهم، ومن مكرهم المتهالِك..

ومضى رسولُ الله ﷺ يُسمِعُهم القرآنَ، فما هو إلا أن يطرُقَ القرآنُ قلبَ الواحد منهم حتى يدخُلَ إلى بوابةِ الإيمان، وإن كان من سادةِ الطغيان.

ستعودُ

وفي أصعبِ اللحظاتِ في حياته، وفي أشدِّ الأزمات في سيرتِه، تتنزَّلُ عليه الآيات، وتُحيطه بركاتُها، ويأتيه من رَوْحِها، ليثبُتَ بها فؤادُه الطاهر، ويَفرَحَ بوعودِها، فحين أخرَجَه أهلُ مكةَ من أحبِّ البقاع إلى قلبه، خرَجَ متألِّمًا يقول: «**علمت أنك خير أرض الله، وأحب الأرض إلى الله عز وجل، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**»[1].

في هذه اللحظاتِ القاسية يأتيه القرآنُ بوعدٍ يُفرِحه، ويُطَمئنُ

(١) « مسند أحمد ط الرسالة (٣١/ ١٣)

قلبَه، يأتيه القرآنُ بآية تزيلُ عنه غمامةَ الحُزْنِ والألم، فيقول الله تعالى له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، يقول الإمام القرطبيُّ: «قال مقاتِلٌ: خرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من الغارِ ليلًا مهاجرًا إلى المدينة في غير الطريقِ؛ مخافةَ الطلب، فلما رجع إلى الطريقِ ونزل الجُحْفةَ، عرَفَ الطريقَ إلى مكةَ، فاشتاق إليها، فقال له جبريلُ: إن اللهَ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: آية ٨٥]، أي: إلى مكةَ ظاهرًا»[1].

فأيّ فرح هذا الذي استشعره ذلك المحبّ لبلده، والمتيّم بموطنه، وهو يسمع كلام الرب سبحانه وهو يعده أن يعود إلى مكّة، بل لم يُطلق عليها مكّة هنا، مع أنّه الاسم الأشهر، بل «معاد» وكأنّه أريد من هذا الاسم أن يلقي مزيد ظلال على معنى العودة، وبعد سنواتٍ قليلة، يعود إلى مكةَ منتصِرًا فاتحًا.

أفراحُ الفتحِ

وفي المدينةِ، رأى النبيّ ﷺ في المنام أنه دخل مكةَ مع المسلمين محرِمًا معتمِرًا.. استبشَر صحابتُه الكرامُ بهذه الرؤية، وتطلّعوا إلى الرجوعِ إلى مكةَ بعد هجرتهم منها لأكثرَ من ستٍّ سنوات.

وعندما أحرَموا للعمرة، ازداد الشوقُ إلى الطواف، ورؤيةِ البيت العتيق، ومشاهدة المكان القديم، والذِّكريات القديمة.

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٣٢١)

ولكن جاء صلحُ الحُدَيبيَة، وأسفرت المفاوضاتُ عن اتفاقٍ يقضي بأن يَرجِعَ المسلمون إلى المدينة هذا العامَ، فلا يقضُوا العمرةَ إلا العامَ القادم، وأن يرُدَّ النبيّ ﷺ من يأتي إليه من قريش مسلمًا، وألا ترُدَّ قريشٌ مَن يأتيها مرتدًّا.

فتعاظَمَ الهمُّ في نفوس الصحابة، وشعَروا بخَيْبةٍ كبرى!

وعندما كانت عباراتُ الألم حاضرةً في هذا المشهد المؤلم..

وعندما قال عمرُ متوجِّعًا مَفْؤودًا: لِمَ نُعطِ الدنيَّةَ في دِيننا؟!

في هذه الأجواءِ المشحونة بالإحباط والألم، يبشِّرُ الحبيبُ صحابتَه، فيقول لهم: «**لقد أُنزلتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ، لهي أحبُّ إليَّ مما طلَعتْ عليه الشمس**» ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1] [الفتح: آية ١].

والمتأمِّلُ لهذه السورةِ، يَعرِفُ سرَّ هذا الفرَحِ العظيم، والابتهاجِ الذي لا يقارِنُه ويشابِهُه أيُّ ابتهاجٍ؛ لأنها سورةٌ تحدِّثُه عن الفتحِ، والمغفرة، وإتمام النعمة، والهداية للصراط المستقيم..

سورةٌ تُخبِرُه بالنصرِ القادم، والسكينةِ التي تملأ القلوبَ اطمئنانًا وأمنًا..

سورةٌ تُخبِرُ بالجنةِ والأنهار التي تجمِّلُها، وتكفيرِ السيئات، والفوز العظيم..

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧٧).

سورةٌ تصفُ له الهزيمةَ التي ستنال عدوَّهُ المتربصَ، الذي لا يكفُّ عن المكرِ والقُبْحِ..

سورةٌ تتحدثُ عن الجنودِ الذي يملؤون السماواتِ والأرض..

سورةٌ تصفُ له مُلْكَ الله، وعطاء الله، وقدرة الله..

سورةٌ تبشِّرُه برضا اللهِ عن صحابته الذين بايَعوه تحت الشجرة..

وهذه بعضُ بشائرِ هذه السورة، وبعض ما فيها، فلا تتعجَّبْ إذَنْ وأنت تقرأ: «**لقد أُنزِلتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ، لهي أحبُّ إليَّ مما طلَعتْ عليه الشمسُ**»..

ترجمةُ الفرَحِ

مَن يتتبَّعْ سيرةَ الحبيب صلى الله عليه وسلم، يُشاهد بوضوحٍ كيف أنّ حركاتِه وسكَناته وخلَجاتِه وأنفاسَه ناطقةٌ بالفرَحِ والابتهاج بكتاب الله..

فمنذ اللحظاتِ الأولى لتلقِّي القرآن، كان حريصًا أشدَّ الحرصِ على حِفظِه، فكان يحرِّكُ به شَفَتَيْهِ مخافةَ أن ينساه، يفعل ذلك من حبِّه إياه، فأنزَلَ اللهُ عليه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامه: آية ١٦].

لقد ترجَمَ ﷺ فرَحَهُ القلبيَّ بهذا الكتاب في مواقفَ كثيرةٍ، فلقد صار امتثالُ القرآن أمرًا ونهيًا سجيةً له وخُلُقًا، فما أمَرَه به

القرآنُ فعَلَه، وما نهاه عنه ترَكَه.

«فما قام أحدٌ بالقرآنِ قيامَ رسولنا ﷺ، وما تدبَّره أحدٌ تدبُّرَ رسولِنا ﷺ، وما بكى أحدٌ من تلاوته أو استماعِه ما بكى سيدُ الخائفين من الله ﷺ، وما اقتدى بهديِهِ أحدٌ اقتداءَ سيدِ العالَمِين ﷺ، حتى قالت عائشةُ رضي الله عنها: كان خُلُقُه القرآنَ»[1].

لقد كان القرآنُ الكريم حاضرًا مع النبي ﷺ في جميعِ يومه..

فبعد كلِّ صلاة يردِّدُ آيةَ الكرسيِّ، ويقرأ الآيتينِ من آخرِ البقرة إذا أمسى..

ويتلو كتابَ الله، ويطيل في قراءته، فعن حفصةَ رضي الله عنها، قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يقرأ بالسورةِ فيرتِّلُها حتى تكونَ أطوَلَ مِن أطوَلَ منها»[2].

وقبل أن يأويَ إلى فراشِه يَجمَعُ كفَّيْهِ، ثم ينفُثُ فيهما، فيقرأُ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسَدِه[3].

وفي ساعاتِ السَّحَرِ حديثٌ آخَرُ، وترجمة أخرى للفرَحِ، فيغادِرُ

---

(١) مقال: القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لخالد سعد النجار (بتصرّف يسير)
(٢) أخرجه مسلم (١٢١٢).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

صلى الله عليه وسلم الفراشَ، ويقوم تاليًا متفكِّرًا في آياتِ القرآن الكريم، وقد يقوم الليلَ كلَّه بآيةٍ واحدة يرتِّلُها حتى يُصبِحَ.

وهذه العَلاقةُ العظيمة مع القرآنِ جعَلتْه يأنسُ بسماعه وتتبُّعِ أصواتِ مَن يتلونه، فحين تتهادى إلى سمعِهِ أصواتُ القرَّاءِ في دُلْجةِ الليل يَعجَبُ من صنيعِهم، فيقول لمن حوله: «**إني لأعرِفُ أصواتَ رُفْقةِ الأشعريين بالقرآنِ حين يدخلون بالليل، وأعرِفُ منازلهم مِن أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنتُ لم أرَ منازلهم حين نزَلوا بالنهار**»[1].

بل كان يتابعُ أصحابَه الكرام حين يقومون الليلَ بالقرآن، فيقترب ليَسمَعَ كلامَ الله في تلك اللحظاتِ الساحرة، حين اجتمعت سكينةُ القرآنِ بسكَنِ الليلِ، وما ألطَفَ ما قال ﷺ لأبي موسى الأشعريِّ: «لو رأيتَني وأنا أستمِعُ لقراءتك البارحةَ»[2].

«تتأخر عائشة رضي الله عنها ذات ليلة، فيستبطئها النبي ﷺ، فلما تعود يسألها عن سرّ تأخرها، فتخبره أنّ: «في المسجد رجلًا، ما رأيت أحدًا أحسن قراءة منه»».

فهل تظن أنّ النبي ﷺ سيضع نقطة، لا! إنّه الجمال، الذي يأسره، يأخذ رداءه عليه الصلاة والسلام ويخرج مسرعًا إلى

(١) أخرجه البخاري (٤٢٣٢).

(٢) أخرجه مسلم(١٨٨٧).

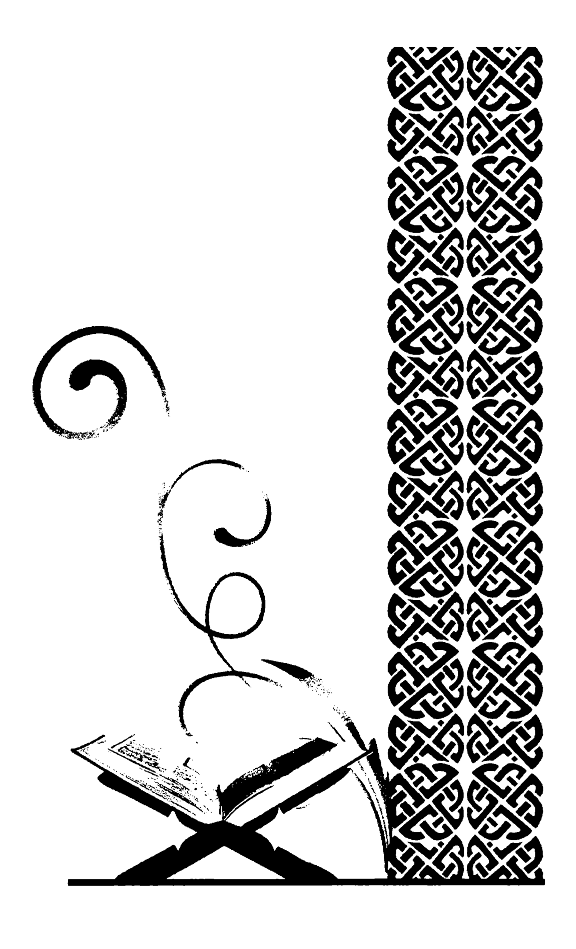
المسجد؛ يريد أن يكتشف من هو صاحب ذلك الصوت الجميل! يقترب من المسجد والصوت يتداح في أجواء المدينة ويزيد وضوحًا وسطوعًا، عرفه النبي ﷺ، وكيف لا يعرفه وهو أحد أفراد دار الأرقم بمكة، أحد المسلمين الأوائل، يمكث طويلًا يستمع (كما تصف عائشة) ثم يعود ويخبرها أنّه سالم مولى أبي حذيفة، ثم يقول: «الحمد لله الذي جعل في أمّتي مثله»[1]

وبعد هذه الجولةِ التي شاهَدْنا فيها فرَحَ النبيِّ ﷺ، وسرورَه وابتهاجَه بكتاب الله، تعالَوْا نتأمَّلْ هذه الأسطُرَ الفاخرةَ التي كتبَها ابنُ القيِّم رحمه الله:

«إن رسولَ الله ﷺ كان أكمَلَ الخَلْقِ في كل صفةٍ يحصُلُ بها انشراحُ الصدر، واتساعُ القلب، وقُرَّةُ العين، وحياة الرُّوح، فهو أكمَلُ الخَلْقِ في هذا الشرحِ والحياة وقرةِ العين مع ما خُصَّ به من الشرحِ الحسيِّ، وأكمَلُ الخلقِ متابعةً له: أكملُهم انشراحًا ولذةً وقُرَّةَ عينٍ، وعلى حسَبِ متابعتِه ينالُ العبد من انشراحِ صدره وقرةِ عينه ولذةِ رُوحِه ما ينالُ، فهو ﷺ في ذِرْوةِ الكمال من شرحِ الصدر، ورفعِ الذِّكر، ووضعِ الوِزْرِ، ولأتباعِه مِن ذلك بحسَبِ نصيبِهم من اتِّباعه»[2].

(١) الرجل النبيل. ١٢٦

(٢) زاد المعاد (١/ ١٧٢).



فَرَحُ الصّحابة

قال أنسٌ: فقلتُ لزيدٍ: كم كان بين الأذان والسَحور؟ قال: قَدْرُ خمسين آيةً.

فَرَحُ الصّحابة

«لقد كان الصحابةُ رضي الله عنهم يَفرَحون بما تفرحُ به كلُّ نفسٍ سويَّة؛ كونُ الفرَحِ انفعالًا فطريًّا جُبِلتْ عليه النفسُ، إلا أنهم ما كانوا يفرحون بشيءٍ أكثَرَ من فرَحِهم بهذا القرآن، ولا قدَّموا عليه شيئًا مما يُفرَحُ به في العادة»[1].

لقد ألقى القرآنُ عليهم ظلالَه، وأصبَحوا كما قال الحسَنُ: «إنَّ مَن كان قبلكم رأَوُا القرآنَ رسائلَ من ربهم، فكانوا يتدبَّرونها بالليل، وينفِّذونها بالنهار»[2].

«كانوا يَفرَحون بالسُّورةِ تتنزلُ على النبيِّ ﷺ ؛ لأنها مِن عندِ الله تعالى، ومِن فرَحِهم بالله تعالى فرَحُهم بما يأتي منه، ويَفرَحون بها؛ لأنها كلامُه سبحانه اختَصَّهم به دون سائرِ الأمم التي ضلَّتْ عنه، ويَفرَحون بها.. ليقينِهم بعناية الله تعالى لهم، ولولا عنايتُه عز وجل ما أنزلها عليهم، ويفرحون بها؛ لأنها تَزيدُهم إيمانًا به سبحانه، وقُرْبًا منه، وعبوديةً له. فهل يُظَنُّ بقومٍ فَرِحوا كلَّ هذا الفرَحِ بسورةٍ أنزَلَها اللهُ تعالى عليهم أن يتقاعَسوا عن تعلُّمِها وتدبُّرِ

---

(١) الفرح: دراسة قرآنية تربوية. زيد عمر عبدالله (بتصرف يسير) على الشبكة العنكبوتية.

(٢) العمل بالقرآن الكريم ونوره على المجتمع، الدكتور/ أحمد حسين عبدالكريم، (ص ١٢٤).

معانيها والعملِ بما فيها؟! وهل هم إلا فَرِحون بذلكم الامتثالِ والتدبُّر والعمل!»[1].

وغيَّرَهم القرآنُ

انتشَلهم القرآن مِن بؤسِ الحياة التي كانت تسُودُ المكانَ..

غيَّرَ كلَّ شيء فيهم..

فمِن عبادةِ الإله المصنوع من التمرِ إلى التحليق حول العرش، لقد طهَّرَ القرآنُ عقولَهم وقلوبهم من رِجْسِ الشرك وخرافات الوثنية، وجمَّلَهم بالأخلاقِ العالية والفضائل النبيلة.

لذلك لا تتعجَّبْ حين تقرأُ عن فرَحِهم بكتاب الله، وعن علاقتِهم القوية بالقرآن، حتى لقد كان أحدُهم يقومُ الليلةَ بآيةٍ واحدة يكرِّرُها متدبِّرًا لها، متعجِّبًا من حلاوتها في قلبه.

وحينما شعَروا بهذا الفرَح، وذاقوا طَعْمَه، وسكَنتْ نفوسُهم به، أخبَروا مَن حولَهم أنَّ كلَّ أفراح الحياة لا تَعدِل الفرَحَ بالقرآن..

وكلَّ مباهجِ الدنيا لا تقارَنُ بهذا الفرح..

تأمَّلْ معي هذا المشهدَ:

لما قَدِم خَرَاجُ العراقِ على أمير المؤمنين عمرَ رضي الله عنه،

---

(١) إبراهيم الحقيل، مقال: الفرح بالله تعالى (الشبكة العنكبوتية).

خرَجَ هو ومولًى له، فجعَلَ عمرُ يعُدُّ الإبلَ، فإذا هي أكثَرُ من ذلك، وجعل عمرُ يقول: «الحمد لل»، وجعل مولاه يقول: يا أميرَ المؤمنين، هذا واللهِ من فضلِ الله ورحمتِه، فقال عمر: "كذَبتَ، ليس هو هذا، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]».

يقول: «بالهدى والسُّنةِ والقرآن، فبذلك فليَفرَحوا، هو خيرٌ مما يَجمَعون، وهذا مما يَجمَعون»[1].

ويَسمَعُ أحدُهم الآياتِ التي للتوِّ نزَلتْ، فيمتلئُ قلبُه إيمانًا، وإخباتًا، وفرَحًا..

فيَذهَبُ ليبشِّرَ بها الآخرين الذين لم يَسمَعوا بنزولها، ويصفُ القرآنُ هذا المشهدَ، فيقول تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: آية ١٢٤].

وكيف لا يستبشرون بهذا الكتابِ الذي يَدْعوهم إلى مكارمِ الأخلاق، والإحسانِ إلى الخلق، وتزكية الرُّوح؟!

كيف لا يبشِّرُ بعضُهم بعضًا بهذا الكتابِ الذي أنقَذهم اللهُ به من قُبْحِ الجاهلية، وظلماتِ الجهل، وملأ قلوبهم رحمةً وجمالًا؟!

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ١٣٢).

كيف لا يستبشرون بهذه الآياتِ وهي إما أن تتحدثَ عن الله، وعن قدرتِهِ ولُطْفِه وعطائه..

أو تحدِّثَهم عن الجنةِ ونعيمها، وعن الطرق التي تقُودُ إلى أبوابها..

أو تحذِّرَهم من المسارات التي تَمنَعُ عنهم الرحماتِ..

أو هي آياتٌ عن قصةٍ في سالف الزمن فيها العِظَة والعِبْرة والتثبيت؟!

اشتياقًا إلى الوحيِ

وكانوا يترقَّبون نزولَ الآيات، ليبتهِجوا بما تأتي به السُّوَرُ، ويدعو إليه الوحيُ..

يريدون أن تزكوَ نفوسُهم، وترتقيَ أرواحهم، ويعرفوا ماذا يريد منهم الله..

فالقرآن مصدَرُ أفراحِهم، ومنه يأخذون العِبَرَ والعظاتِ التي تُعِينُهم على القيامِ بواجبهم الصحيحِ في هذه الأرض..

يقول تعالى:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ ... ﴾ [محمد: آية ٢٠]..

يقول الإمام القرطبيُّ في تفسيره لهذه الآية:

«ويقول الذين آمنوا -أي: المؤمنون المخلِصون-: لولا نُزِّلتْ سورةٌ، اشتياقًا للوحي» [(١)].

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٣).

فما أجمَلَ حياتَهم بالقرآن!

وما أروَعَ قلوبَهم التي تجمَّلتْ به!

فطابَتْ أنفسُهم

عندما نزَلَ قولُ الله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات: آية ٥٤]..

ظن الصحابةُ الكرام الذي أحَبُّوا الآياتِ واستبشَروا بنزول السُّوَرِ أنها الآيةُ الأخيرة، وأنَّ الوحيَ سينقطعُ، إذ أمَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أن يتولى عن المعانِدين، فاشتدَّ الأمرُ عليهم، فأنزل اللهُ -تبارك وتعالى- بعد ذلك: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: آية ٥٥]، فعَلِموا أن التذكرةَ باقيةٌ، وأن القرآنَ لن يتوقَّفَ، فطابت أنفسُهم"[1].

فيا لهذه القلوبِ المتعلقة بأنوار الوحيِ!

يقول تعالى عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: آية ٣٦].

قال قتادةُ: «هم أصحابُ محمدٍ ﷺ يفرَحون بنورِ القرآن»[2].

---

(١) انظر: تفسير البغوي - إحياء التراث (٤/ ٢٨٨).
(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٣٢٥)

قلبٌ يطيرُ

مَن أنصتَ للقرآنِ بقلبه، وتأمَّلَ عجائبَه، وتوقَّفَ أمام أسراره، فحتمًا سيُخرِجُه لفضاءٍ رَحْبٍ، ويعرُجُ به إلى ملكوتٍ آخرَ، فأيُّ شيءٍ أطيَبُ للنفس وأحلى للقلب من الاستماعِ للقرآن، والوقوف أمام معانيه العظيمة، والانبهار بين يدَيْ أسراره المذهلة؟!

كيف والمستمعُ عربيٌّ من أهل البيان..

والذي يتلو القرآن.. الذي أُنزِل عليه القرآن.. محمدٌ صلى الله عليه وسلم..

بعد هزيمةِ أهل مكةَ في بدرٍ الكبرى، وقع العديدُ من المشركين في الأَسْرِ، فبعَثَ سادتُها جُبَيرَ بن مُطعِمٍ للمدينة ليفاديَ الأَسْرى.

دخَلَ جُبَيرٌ المدينةَ التي أضاءت جنَباتُها بنورِ محمد ﷺ، وفي وقتِ صلاة المغرب، والسماءُ تتزيَّنُ بألوان الشفَقِ، والسكينةُ تَغشَى النفوسَ، يَسمَعُ رسولَ الله ﷺ يقرأ القرآنَ، يَسمَعُ، وهو العربيُّ الأصيل، القرآنَ الذي نزَلَ بلسانٍ عربي مبين، ويَسمَعه مِـمَّن؟

مِن الذي أنزل اللهُ عليه القرآنَ!

فلا عجَبَ أن تستقرَّ كلُّ كلمةٍ يسمعها في المكان المناسب لها من نفسه..

فرغم أنه جاء في أمرٍ لا يمُتُّ بصلةٍ لتأثُّرِ القلب، وانبهارِ النفس، فقد جاء في مسألةِ أسرى مقيَّدين، وفي ذاكرتِه صُوَرُ القتلى من الأقاربِ والأصدقاء، وقد يكون في جسَدِه شيءٌ من آثارِ تلك المعركة، ولكنَّه القرآنُ الذي تُشرِقُ آياتُه على كل بقعةٍ مُظلِمة، فتُنيرُها للأبد!

لقد سَمِعَ النبيّ ﷺ يتلو من سورة الطُّور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: آية ٣٥-٣٧]..

فقال جُبَيرٌ كلمتَه الخالدة عند سماعِ هذه الآيات: «كاد قلبي يَطِيرُ»!

كان القرآنُ وحده السبيلَ الذي قاد جُبَيرًا إلى نورِ الحياة..

فبعد مُدةٍ يسيرة جاء ليُعلِنَ شهادةَ الحق، ويلتحِقَ بركبِ الصحابة العظماء..

مواقيتُهم الخاصة

أقبَلَ الصحابةُ الكرام على كتابِ الله فقرَؤوه، وتدبَّروه، ونظَروا في نصوصه، وفسَّروا آياتِه، وعَمِلوا بأوامره، واجتنَبوا نواهيَه، واستخرَجوا من كنوزه، حتى أصبَحَ القرآنُ شِعارَهم، ودِثارَهم...

وحتى تُدرِكَ عَلاقتَهم المتجذِّرةَ والعميقة بهذا الكتابِ المبارَك، وترى مدى ابتهاجِهم به، تعالَ لتتأمَّلَ هذا النصَّ بشكلٍ مختلف..

عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه، عن زيدِ بن ثابت رضي الله عنه، قال: تسحَّرْنا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قام إلى الصلاةِ، قال أنسٌ: فقلتُ لزيدٍ: كم كان بين الأذان والسَّحور؟ قال: قَدْرُ خمسين آيةً.

قد يمُرُّ علينا هذا الحديثُ فنبدأ بسردِ كميةِ المسائل الفقهية المستنبَطة منه، وهل الوقتُ المقصود هو الذي بين الأذان والإقامة، أو ما بين الأذان والسَّحور؟ واستحباب السَّحور، وفضل تأخير السَّحور، وغير ذلك..

ولو تأمَّلْنا النصَّ بطريقةٍ أخرى، لقُلْنا: يا لتعلُّقِهم بكتاب الله!

لقد أصبَحتِ الآياتُ كالأنفاس..

والوقتُ عبارةٌ عن مقدارِ قراءة آياتٍ من القرآن.

فهل هناك عَلاقةٌ أسمى من علاقةِ الصحابة بالقرآن؟!

وهل هناك ابتهاج وفرَحٌ يقارِبُ أفراحَ الصحابة بالقرآن؟



ذبولٌ.. ثم فرَحٌ

جثمتِ الأزمةُ بلا موعدٍ سابق..

فذبلتِ الرُوحُ..

وتسارَعتْ خَفَقاتُ القلب..

فجاءت الآياتُ القرآنية..

لتغمُرَ الأرواحَ المنكسرة والنفوسَ

المأزومة بشلّالاتِ من الفرَحِ!



ذبول ثم فرح

لم يخلقِ اللهُ الحياةَ الدنيا لتكونَ غير دُنيا..

لم يخلقْها لتكونَ الجنّةَ! لتكونَ موئلَ المسرّاتِ فحسب!

إنّه خلقها اختبارًا، ولن يكونَ الاختبارُ نتيجةً، ولنْ تكون البداية النهاية!

ففيها الابتسامةُ والنكدُ، والحبورُ والتعبُ، والسعادةُ والإرهاقُ..

هنا أرواحٌ أذبلتْها المصائبُ، وأنهكتها الابتلاءاتُ، وأرهقها الكربُ، ثم جاء القرآن ليفتحَ نافذةَ الأملِ، ويلوّن الحياةَ ببهجةِ الأغصانِ النديّة، والأوراقِ الخضراءِ المبتلّة بالحياة والحب..

هنا قصصٌ ترقمُ نفسَها لنعلمَ كيف فعلَ بها القرآنُ، وكيف حوّلتها الآيات، وكيف بدّدت مآسيها كلمات الله..

أفراحُ الطاهرةِ

تجاوَزتْ سِهامُهم المسمومةُ أصحابَه وأتباعه..

انتقَلوا من الطَّعْنِ في رفاقِه إلى الطعنِ في عِرْضِه..

اقتحَمتْ كلماتُهم المشؤومة كلَّ السُّتور والأبواب، فولَجتِ البيتَ النبويَّ العظيم، لقد وصَلتْ للطاهرةِ المطهَّرة!

الألم الذي أصابها لم يكُنْ حِكْرًا عليها..

بل لقد امتدَّ إلى حبيبِها المكلوم..

وإلى البيت الذي خرَجتْ منه..

وإلى الصحابة الذين يشاهِدون الوجَعَ يتغشَّى حبيبَهم..

أما عن ألَمِها ووجَعِها هي، فيكفي أن تتخيَّلَ ملامحَها ونظراتِها وخفقاتِ قلبها وهي تَسمَعُ مِن أحبِّ الخَلْقِ إليها هذه الكلماتِ: **«يا عائشةُ، أمَا إنَّه بلَغني كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً فسيُبرِّئُكِ اللهُ، وإن كنتِ ألمَمْتِ بذنبٍ فاستغفِري اللهَ»**(١).

شهرٌ كامل من الهمهمات المحرِقة، ومن الانتشاءِ بلحظةِ انتصارٍ مزعوم، يتغذَّى على وجَعِ بريئةٍ لم تَعرِفْ سوى الطُّهر والنقاء!

إنَّ يومًا واحدًا ممتلئًا بكل عباراتِ التهكُّم، وبالنظرات الساخرة يكفي لإحداثِ جُرْحٍ عميق في القلب، فكيف بشهرٍ كامل؟!

وبعد أن فُتِنَ مَن فُتِن، وهلَكَ في الفتنةِ مَن أراد اللهُ هلاكَه، وثبَتَ مَن ثبَّته اللهُ وأنجاه..

جاءت الآياتُ، وأضاءت المدينةُ بنُورِ سورة النور!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ

(١) صحيح البخاري (٢٦٦١).

﴿خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: آية ١١]..

فأيُّ فرَحٍ عاشه المترقِّبون؟! وأيُّ بؤسٍ نزَلَ في نفوس المتربِّصين؟!

كيف نامت الطاهرةُ تلك الليلةَ وآياتٌ تَنزِلُ من السماء تُخبِرُ بطهارتها وعِفَّتِها؟!

لقد كانت الآياتُ فرَحًا للحبيبِ الذي اختارها، وجعَلَها أحَبَّ الخَلْقِ عنده..

للأمِّ التي ربَّتْها على الفضيلة..

للأبِ الذي تَحمِلُ اسمَه..

بل كانت فرَحًا وتسلية لكل مَن سيقع عليه الظلمُ والتعدِّي والبهتانُ في يوم من الأيام، فالآيات تُخبِرُ كلَّ مظلومٍ أنَّ بعد شدةِ البؤس انفراجًا، وبعد ليلِ القهر شمسًا تُبدِّدُ الظَّلامَ، وأنَّ في النوازلِ الموجعةِ خيراتٍ وعطايا من الحكيم العليم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: آية ١١]..

انتهى المشهد.. خَرِسَتِ الأصواتُ القبيحة..

عادت الطاهرةُ لأجملِ سكَنٍ عرَفتْهُ البشريةُ..

عادت وآياتٌ في أعظَمِ كتابٍ تُخبِرُ أنها طاهرة..

وبأنَّ الذي اعتدى على سُمْعةِ عِرْضِها الشريف له عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة..

وعلى الثلاثة

بعد أن تخلَّفَ كعبُ بن مالك عن غزوةِ تبُوكَ، وبعد أن عاد الرسولُ صلى الله عليه وسلم ومَن معه للمدينةِ، ذهَبَ كعبٌ للسلام عليه، فألقى عليه السلامَ، فلم يَسمَعْ ردًّا لسلامه، هل هناك أقسى مِن هذا الموقفِ؟ هل في الكونِ أبأسُ من نظراتِ كعبٍ وهي ترْقُبُ شَفتَيِ النبيِّ ﷺ وتنتظر تحرُّكَهما بردِّ السلام؟!

ثم ماذا؟

يقول كعبٌ: فبَيْنا أنا أمشي في سوقِ المدينة، إذَا نَبطيٌّ مِن نَبَطِ أهل الشام ممن قَدِم بالطعام يَبِيعُه بالمدينة، يقولُ: من يدلُّ على كعبِ بن مالك؟ قال: فطَفِق الناسُ يشيرون له إليَّ، حتى جاءني فدفَعَ إليَّ كتابًا من مَلِكِ غسَّانَ، وكنتُ كاتبًا، فقرأْتُه، فإذا فيه: «أما بعدُ، فإنه قد بلَغَنا أن صاحِبَك قد جفاك، ولم يَجعَلْك اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضِيعة، فالحَقْ بنا نُواسِكَ».

قال: فقلتُ حين قرأْتُه: وهذا أيضًا من البلاء! فتأمَّمْتُ بها التَّنُّورَ، فسجَرْتُها بها.

يقول كعبٌ: حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبَثَ

الوحيُ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرك أن تعتزِلَ امرأتَك، قال: فقلتُ: أطلِّقُها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزِلْها فلا تَقرَبْها.

البيتُ بلا أحدٍ، والقلبُ مشتَّتٌ، والنظراتُ زائغةٌ، لقد توارت عباراتُ المحبِّين، واختفَتِ ابتساماتُ الأصدقاءِ الجميلةُ، وتلاشى احتفاؤُهم به في المجالس..

ولن يجدَ المرءُ وصفًا لحالِ هذا البؤسِ والشقاء الذي عاشه كعبٌ أوضَحَ ولا أدقَّ من وصفِ الله لها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ [التوبة: آية ١١٨]..

هل تأمَّلتَ يومًا «بما رحبت».. فهذه الأرضُ الواسعة، والمساحات الشاسعة، أصبَحتْ في أعيُنِهم ضيقةً.. كئيبةً..

ليس فيها ما يُبهِجُ!

والذي يَعلَمُ ما في الضمائرِ والنفوس يقول: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾، فكيف كان ذلك الضيقُ؟ وما حجمُ الوجَعِ الذي أظلمت بسببه الحياةُ؟!

وجاءت لحظةُ البشرى والفرح..

لحظةُ الانعتاقِ من بؤس المقاطعة.. لحظةُ الشعورِ برحمة الله، وعفوِه، ومغفرته..

وإعادة العلاقة مع كل الأشياء الجميلةِ التي تحيط به..

بحجمِ ذلك الألم.. كانت البشائرُ، وبعمقِ ذلك البؤس.. كان الفرَحُ..

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾[التوبة: آية ١١٨]..

صِفْ لنا فرَحَك بهذه الآيةِ يا كعبُ، وربُّ العزةِ والجلال يقول فيها: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وأنت واحدٌ من هؤلاء الثلاثة!

ما شعورُك وأنت تتلو هذه التزكيةَ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾؟! [التوبة: آية ١١٨].

ما الذي يدور في داخلِك وعينُك تقع على ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾؟! [التوبة: آية ١١٨]..

إنَّ المذنِبَ يرجو المغفرةَ، ويسأل اللهَ القَبول، ويخشى ألا تُقبَل توبتُه، فكيف كانت أفراحُك ومسرَّاتك بآيةٍ تُخبِرُ بأن ذَنْبَك الذي أرَّقَك قد غفَره الله؟ وخطيئتَك التي أوجَعتْك سياطُها قد عفا اللهُ عنها؟!

وانقطَعَ الوحيُ!

قال أبو بكرٍ لعمرَ -رضي الله عنهما- بعد وفاةِ رسول الله ﷺ: انطلِقْ بنا إلى أمِّ أيمنَ نزُورُها، كما كان رسولُ الله ﷺ يزُورُها، فلما انتهيَا إليها بكَتْ، فقالا لها: ما يُبكيكِ؟ أمَا تَعلَمينَ أنَّ ما عند الله

تعالى خيرٌ لرسول الله ﷺ؟!

فقالت: ما أبكي ألا أكونَ أعلَمُ أنَّ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ، ولكنْ أبكي أنَّ الوحيَ قد انقطَعَ من السماءِ، فهيَّجَتْهما على البكاءِ، فجعَلا يَبكيانِ معها"[1].

توقَّفَ نزولُ الآياتِ على القلوب المشتاقة إلى الوحيِ..

ولن يَسمَعَ أحدُهم في يومٍ من الأيام كلمةً تبشِّرُه بآياتٍ للتوِّ نزَلتْ على رسول الله ﷺ..

يا لهذا الألمِ الذي فتَكَ بقلوبهم الرقيقة!

يا لهذا الوَجْدِ الذي أوجَعَ أرواحَهم النقيَّة!

فلن يَنزِلَ جبريلُ مرةً أخرى ومعه النورُ الذي تكلَّمَ به اللهُ، وستتوقفُ أجملُ مدارَسةٍ عرَفَها البشرُ، حين كان يدارِسُ رسولَ الله ﷺ القرآنَ في رمضان..

بكَتْ أمُّ أيمنَ، وأبكت الجميعَ..

لقد انقطَعَ الضوءُ الذي أشرَقتْ به السماءُ..

لقد أظلَمَ كلُّ شيءٍ في المدينة..



(١) صحيح مسلم (٢٤٥٤).

عَلى سبيل الفَرَح

جاء هذا الكتابُ العظيم ليُدهشَنا
بالعطايا، ويَدْعونا ألا نتوقَّفَ عن
العملِ، والبذلِ، والعطاء.. جاء ليُخبرَنا
أن الجزاءَ الحقيقيَّ والثناء الحقيقيَّ
ليس هنا.. ولكنه هناك..





على سبيل الفرح

آياتُ القرآن الكريم تُبهِج القلب، وتحيّد الأحزان، وتجعل الروح تخوض تجربة السعادة مرّة تلو الأخرى..

ففيها النجاةُ في الدنيا..

والأُنس في الآخرة..

في تلك الآيات شعور يفوق كل شعور، فالذي تقرأ كلامه هو الله، وكل وعد من وعوده لك بالخير ناجز، وكل أمل يتراءى لك من خلال آياته متحقق..

والعيشُ مع معاني آيات الكتاب العزيز، وما قاله أهلُ التفسير عن هِباتها، يجعل النفس تقوم بمهمّة تأطير الهموم، وجعلها في حيّز ضيّق من واقع الحياة..

في كل آية ابتسامة، ومع كل صفحة تجد فرحًا ينتظرك، وبهجة تتهيّأ لدخول عالمك..

فليَفرَحوا

يكفي أن نتأمّلَ بعمقٍ كبير أنّ الآمِرَ بهذا الفرحِ هو الله عز وجل..

لنتذكَّرْ دومًا أن الفرحَ بالقرآن لا يَعدِلُه شيء..

فيجب أن يبقى فرَحًا مختلفًا لا يشابِهُه أيُّ فرح!

ولا تقارِبُه أيُّ بهجة..

للشيخ السعديِّ كلام جميل عن أمر الله سبحانه بالفرح في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: آية ٥٨]، يقول رحمه الله: «وإنما أمر اللهُ تعالى بالفرح بفضلِهِ ورحمته؛ لأنّ ذلك مما يوجب انبساطَ النفس ونشاطَها، وشُكْرَها لله تعالى، وقوتَها، وشدةَ الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرحٌ محمود، بخلاف الفرحِ بشهوات الدنيا ولذَّاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذمومٌ، كما قال تعالى عن قوم قارونَ له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: آية ٧٦].

وكما قال تعالى: في الذين فَرِحوا بما عندهم من الباطل، المناقِضِ لِما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾»[1] [غافر: آية ٨٣].

فرحةٌ وبُشرَى

وتَفرَحُ بالقرآنِ، لأنه الكتابُ الذي يخبرك بأجورِ الذين تغلَّبوا على كل العوائقِ والعوارض، وتنافَسوا في عمل الصالحات، ففي كل يومٍ عمَلٌ صالح يَزيدهم قُرْبًا، وفضلًا، وأجرًا!

في خَتْمتك القادمة للقرآن، حاوِلْ أن تتوقفَ أمام كل آيةٍ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٨٤).

تُخبِرُ عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وشاهِدْ حجم الأجورِ المذهلة التي تنالهم..

تأمَّلِ الآياتِ التي تخبر بالسَّكينةِ الهائلة التي تغشاهم..

والجِنانِ العالية التي أعَدَّها الله لهم..

إن أولَ بشرَى تقع عليها عينُك وأنت تقرأُ القرآن هي للذين آمنوا وعملوا الصالحات..

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: آية ٢٥]...

ثم تَهطِلُ العطايا..

نعيمُ الدنيا..

محوُ الخطايا..

ثواب الآخرة..

سعادة الحياة..

دخول الجِنان..

الخلودُ في الفِردوس الأعلى..

كلُّ ذلك للذين آمنوا وعملوا الصالحات..

الآياتُ كثيرة...تأمَّلْها!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: آية ٩٦]..

هل هناك أعظَمُ من محبةِ الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات؟

وتأمَّلْ أيضًا..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: آية ٢]..

يقول الإمام الطَّبَري:

«﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: وأصلَحَ شأنَهم وحالهم في الدنيا، وفي الآخرة، بأن أورَثَهم نعيمَ الأبد، والخلودَ الدائم في جناته»(١).

دعاءُ سادةِ الملائكة..

ستُفرِحُك دعوةُ رجلٍ صالح، وستغمُرُك طُمَأنينةٌ مذهلة وأنت تسمع مُسنَّةً عابدةً ترفع يديها للسماء وتُتمتم لك بدعَوات صادقة..

إذا كانت هذه المشاهدُ تملأ حياتَك أُنسًا وفرَحًا، فتعالَ لفرَحٍ آخرَ، وتأمَّلْ دعواتِ سادةِ الملائكة الذين لهم مهمةٌ عظيمة، وعملٍ جليل، والذين اختَصَّهم اللهُ بأشرَفِ الأعمال وأعظمها..

والذين يحِملون عرشه العظيم..

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ١٤٨).

أسعِدْ قلبك المتعطِّش بتأمُّلِ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [غافر: آية ٧].

يقول الشيخ السعديُّ رحمه الله:

«يُخبِر تعالى عن كمالِ لُطْفِه تعالى بعباده المؤمنين، وما قيَّضَ لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجةِ عن قدرتهم، من استغفار الملائكة المقرَّبين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاحُ دِينهم وآخرتهم...

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: وهذا من جملةِ فوائدِ الإيمان وفضائله الكثيرة جدًّا، أنَّ الملائكةَ الذين لا ذنوبَ عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبَّبَ لهذا الفضلِ العظيم»[1].

قال خلَفُ بن هشام: «أتيتُ سليمَ بن عيسى لأقرأَ عليه، فكنتُ أقرأ عليه حتى بلغتُ يومًا سورةَ غافر، فلما بلغتُ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بكى بكاءً شديدًا، ثم قال لي: يا خلَفُ، ألا ترى ما أعظم حق المؤمن؟ تراه نائمًا على فراشِه والملائكة يستغفرون له»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٣٢).
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان(٢/ ٢٤٢).

لن تزول..

وتبتهجُ بكل آيةٍ تُخبِرُك بأن العطاءَات لن تزُولَ، وأن النعمةَ باقية، فالخوفُ من زوالِ النعمة، وتغيُّر الحال، واستحالة الفرَح حُزْنًا: كلُّ ذلك من معكِّرات الفرَحِ والسرور، فيظلُّ المرء مترقِّبًا لحظةَ البؤس، متوجِّسًا يرقُبُ نهايةَ البهجة، متلفتًا يخشى تبدُّلَ الحال.

في كتابِ الله آيةٌ تبعَثُ الاطمئنانَ في النفوس المكروبة، وتزيلُ هذه الوساوسَ والهواجس بالكليَّة.. إنها آيةٌ تُخبِرُك بأن النعمةَ لن تزُولَ، وبأن العطاءَ لن يتوقَّفَ، وبأن الفضلَ لن ينقطعَ، إلا إذا سعى الخَلْقُ لزوالِ نعمة الله بإرادتهم.

يقول تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: آية ٥٣]..

هذا وعدٌ عظيم، وفضل كبير، وعطاءٌ من الرب الكريم..

يَفرَحُ به الخائفُ..

ويأنس به المترقِّب..

ويطمئنُّ عند تأمُّله الوَجِلُ..

يقول الإمامُ ابن كثيرٍ رحمه الله:

«يُخبِرُ تعالى عن تمام عدلِهِ وقسطِهِ في حكمه بأنه تعالى لا يغيِّرُ نعمةً أنعَمَها على أحدٍ إلا بسببِ ذنبٍ ارتكبه...»[1].

هنا تهنأ النفوس المؤمنة، وتزول قلاقلها ووساوسها، ليقينها أنّ الله تعالى لن يغيّر النعم التي أسداها، والأفضال التي أعطاها، مادامت باقية على إيمانها، ومازال أصل شكر النعم مغروسًا في أعماقها..

ويُسلِّيك القرآنُ..

وتَفرَحُ بالقرآنِ الذي يُسلِّيك ويَمنَحك الأمنَ..

فالحياة.. تتغيَّرُ في لحظة..

فتَغِيبُ الابتسامةُ بسبب خبَرٍ..

وتتعثَّرُ الفرحةُ بسبب اتصال..

وتزُولُ البهجةُ بخَطْوةٍ خاطئة في الشارع..

الحياةُ سريعة التغيُّر، فالفاصلُ الزمنيُّ بين لحظاتِ الاطمئنان والسكينة وبين لحظات الخوف والترقُّب قد يكون ثوانيَ معدودة!

وحين تجثُمُ المصيبةُ، فليس سوى القرآنِ مصبِّرًا ومسلِّيًا ومعزِّيًا.

---

(1) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٨).

تأمَّلْ هذه الآيةَ المسلِّيَةَ، التي تُخبِرُنا أنّ المصائبَ مكتوبةٌ، ومسجَّلة، وأنّها بأمرِ الله، وبإذنه، وأنها بحكمةٍ تَخفَى على أذهانِنا، وتَغِيبُ عن تصوُّراتنا..

يقول تعالى:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: آية ١١].

فتُخبِرُك الآيةُ بأن كل ما يحدُثُ بإذن الله..

وبأن الإيمانَ سبيلُ نجاتك..

وأن اللهَ يَعلَمُ كلَّ شيء، ولا يَخفَى عليه من أمرك شيء..

الفرَحُ بهذه الآيةِ، والأُنْسُ بما فيها: سبيلٌ للانتصار على كل النوازلِ والأوجاع العارضة.

فاستجَبْنا

وكلما راودَتْك النفسُ على التوقُّفِ عن الدعاء، جاءت مباهجُ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ [الأنبياء: آية ٧٦]، لتُعِيدَك إلى الـمِحراب.

ألم تبهَرْك ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ وأنت تتلو القرآنَ؟!

ألم تتوقَّفْ يومًا مع هذه «الفاء» التي تعني سرعةَ الاستجابة؟!

تأمَّلْها في استجابةِ الله للأنبياء..

بعد سؤالِهم اللهَ النجاةَ من الكربِ والمرض، ومن العدو المتربِّص..

فبعد أن دعا نوحٌ -عليه السلام- قومَه مئاتِ السنين، وبعد تكذيبهم له، وسخريَّتِهم بما جاء: نادى، فجاء النصرُ والتأييد:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: آية ٧٦]..

وبعد أن أرهَقَ المرضُ أيوبَ -عليه السلام-، وبعد أن هجَرَه الناسُ، وغادرت الأشياءُ الجميلة من حياته، واشتدَّ عليه الكربُ والبلاء: توجَّهَ إلى الله بكل ثقةٍ وبكل أدبٍ، فكانت الاستجابةُ، وكانت الرحمةُ، وكانت نهاية الابتلاء:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: آية ٨٣]..

وفي ظلماتٍ مُخيفة، ومكان غريب، هتَفَ يونسُ -عليه السلام- منكسِرًا معترفًا:

﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: آية ٨٧]..

فجاء المَدَدُ والعَون، وأحاطه اللهُ برعايته:

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: آية ٨٨]..

بل إنّ للمؤمن مع جملة «وكذلك ننجي المؤمنين» موعدًا للفرح خاص، ولقاءً مع السرور بهيج! فمفتاح تفريج الكربات تتضمنه الآية، وتضمنه في وقت واحد! فما عليك أيّها المكروب إلا أن تفعل ما فعل يونس -عليه السلام-، لتلقى ما لقي يونس عليه السلام، مع الرحمة، والمغفرة، والتفريج..

طال اشتياقُ زكريًّا -عليه السلام- إلى الولدِ، وتجدَّدَ الشوق عامًا بعد عام، فنادى ربَّه وهو مكلومٌ بوجَعِ الانتظار: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء: آية ٨٩]..

فجاءت الإجابةُ سريعةً ومباشرة، ومعها عطايا أخرى:

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: آية ٩٠]..

«ويَفرَحُ بالقرآنِ كلُّ الذين لم يسلَّطْ عليهم الضوءُ..

ولم تُذكَرْ أسماؤهم، ولم ينالوا منصِبًا..

أولئك الذين يُسنِدون الجميعَ، ولم يُسنِدهم أحدٌ..

فالقرآن يُخبِرُهم أنَّ اللهَ يَعرِفُهم جيدًا..»

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: آية ٤٠]..

نحن لا نَعرِفُ كلَّ شيوخِ الإمام مالك..

وقد نَجهَلُ أسماءَ أكثر الذين قاموا بتدريسِ ابن القيِّم..

ونشاهِدُ الجامعَ الضخم ولا نَعرِفُ مَن الذي أخبَرَ الذي بناه بأجرِ بناء المساجد!

نستمِعُ للشيخِ الحُصَريِّ، ونُنصِتُ للمنشاويِّ، وتَخشَعُ أرواحُنا لتلاوةِ عبد الباسط، دون أن نَعرِفَ مَن شيوخُ الحصري.. ومَن الذي علَّمَ المنشاويَّ.. ومَن الذين قاموا بتسجيل تلاواتِ عبد الباسط!!

وكم مِن معلِّم مجهولِ الاسم يقف خلف طبيبٍ بارع، ومهندس ناجح، ومخترِعٍ أذهل الكلَّ باكتشافاته!

وإذا تلفَّتْنا هنا أو هناك، سنَلمَح عملًا ومنجَزًا ووَقْفًا وجُهْدًا

خَلْفَه أشخاصٌ لا يَعرِفُهم الناس.. ولم يَسمَعْ بهم أحدٌ، ولم تُسطَّرْ في مدحِهم المقالاتُ والقصائد..

وَحْدَه القرآنُ..

يُطَمئنُ كلَّ قلب، ويُسعِد كلَّ عامل، ويَضمَن حقَّ كل مجتهد..

ففي تأمُّلِ الآيات التي تُخبِرُ بأجرِ العاملين، وثواب الباذلين، وعطاء المحسنين: عزاءٌ وفرَحٌ لكل مجهولٍ لم تحتفِلْ به الأرضُ في يومٍ من الأيام..

فلن يَضِيعَ الجهدُ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: آية ٥٦]..

ولن يُظلَم العامل ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: آية ٤٧]..

ولن يُبخَس المحسِنُ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٣٠]..

جاء هذا الكتابُ العظيم ليُدهِشَنا بالعطايا، ويَدْعونا ألا نتوقَّفَ عن العملِ، والبذلِ، والعطاء.. جاء ليُخبِرَنا أن الجزاءَ الحقيقيَّ والثناء الحقيقي ليس هنا.. ولكنه هناك..

وإيّاكم

حين تنظُرُ إلى تلك الكائناتِ الحيَّة، التي تقعُ عليها عينُك في كل يوم..

كالطيورِ التي تُجمِّلُ السماءَ بتحليقها..

أو تلك الصغيرةِ التي بالكاد تَلمَحُها..

فتشاهِدُها وهي تسعى هنا، وتتحرك هناك؛ بحثًا عن سبيلٍ يقودُها للبقاء، فتُمضي النهارَ في تحصيل الرزق، وحين يُسدِلُ الليلُ أستارَه تأوي بأمانٍ إلى أوكارها وبيوتها.

إنّ هذا المشهدَ المتكرر الذي تشاهِدُه كلَّ يوم عشَراتِ المرات يجب أن يَضعَك وجهًا لوجه أمام فرَحٍ مختلِفٍ تَصنَعُه في حياتِك هذه الآيةُ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: آية ٦٠]..

يقول الشيخ السعديُّ رحمه الله: «الباري -تبارَك وتعالى- قد تكفَّلَ بأرزاقِ الخلائق كلهم، قويِّهم وعاجزِهم، فكم ﴿ مِّن دَآبَّةٍ ﴾ في الأرض، ضعيفةِ القُوَى، ضعيفةِ العقل ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ ولا تدَّخِرُه، بل لم تزَلْ لا شيءَ معها من الرزق، ولا يزالُ اللهُ يسخِّرُ لها الرزقَ في كلِّ وقتٍ بوقته»[1].

إن الذي أعطى هذه المخلوقاتِ التي بلا عقلٍ ولا تدبير ولا قدرة على التفكير.. هو الذي تكفَّلَ برِزْقِك وعطائك.

وتأمَّلْ ختامَ الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾..

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٣٥)

يَسمَعُ دعاءَك، ويَعلَم حالَك..

والآن؛ كلَّما حطَّ اليأسُ رَحْلَه في حياتك، فاطلُبْ منه المغادرةَ وأنت تقرأ بترقُّبٍ وفرَحٍ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾..

لا تَــــدْري

وتُبهِجُك حين تَحزَنُ آية: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: آية ٧]..

فالألم لن يطُولَ، والخوفُ سيَرحَل..

والغمُّ لن يَبقَى طويلًا..

فالربُّ رحيمٌ، وعليم، وقدير..

وسيأتي الفَرَجُ رغم الحساباتِ المعقَّدة، رغم التوقُّعات المحبِطة..

فبعد شدةِ الظلام يشعُّ النورُ، وبعد اختناقات الألم، ستُمطِرُ غيمةُ الأمل..

قد تَحزَنُ على فرصةٍ فائتة، وقد تَندَمُ على مشروعٍ خاسر..

ولكنَّ القرآنَ لا يريد لقلبِك الحُزْنَ، ولا لحياتك الوجَعَ..

تُخبِرُك هذه الآيةُ أنَّ ثمة أفراحًا ستغمُرُك، وبشائرَ ستطرُقُ نوافذَك..

فمَن قال لك: إنَّ الستائرَ أُسدِلت، وإن المشهدَ قد انتهى إلى الأبد؟!

أكثرُ مِن جزاءٍ

وسيَفرَحُ العاملُ المجتهِد في فعلِ الخيرات بالآيات التي تُخبِرُه بثوابِ العمل في الدنيا قبل الآخرة، ويَدْعونا الإمامُ العارف ابنُ القيم -رحمه الله- لتأمُّلِ هذه البشرى، فيقول:

«أربعة مواضعَ ذكَر اللهُ تعالى فيها أنه يجزي المحسِنَ بإحسانه جزاءينِ: جزاءً في الدنيا، وجزاءً في الآخرة..

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: آية ٣]..

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: آية ٤١]..

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: آية ٩٧]..

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾..»[1]

[الزمر: آية ١٠].

بغيرِ حسابٍ

القرآنُ سَلْوةُ الصابرين، ومُعِين المتوجِّعين، ومسكِّن آلام المفؤودين.

يقرأ الصابرُ المحتسِب عطايا وأجورَ الصابرين في كتاب الله، فيسكُنُ قلبُه، ويطمئنُّ فؤادُه، ويَعلَم أن بعد الألم عاقبةً حميدة، وخلف احتسابِ الآلام أجورًا لا يحصيها إلا اللهُ..

لن يجدَ الصابرُ المحتسِب أعظمَ تثبيتًا على صبرِه من القرآن الكريم، فمهما تزيَّنتِ العباراتُ التحفيزيّة، والمقطوعات الأدبية، والقصائد الشِّعرية، فلن تملأ قلبَ الصابر بالسُّلوان كما تَصنَعُ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: آية ١٠].

ومهما سَمِع مِن عبارات التطمينِ، فلن يسكُنُ قلبُه كما تسكِّنُه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: آية ١٤٦].

وفي كل آيةٍ موعدٌ مع المسرَّات والفرح.

---

(١) الوابل الصيب (ص ٦٧).

انتصار

وسيَفرَحُ المؤمنُ بسلاحه الأقوى الذي يواجِهُ به عدوَّه الأزليَّ الذي يسعى بكل ما يَملِكُ من كيدٍ ومكرٍ أن تُصبِحَ حياةُ خصومِه تعيسةً، يُحِيطُها الخوفُ، ويظلِّلُها البؤسُ.

وكيف ينتصِرُ الشيطانُ وسلاح خَصْمِه القرآنُ؟!

إذا خوَّفك الشيطانُ من الفقرِ، فرُدَّه بالرزقِ المكتوب: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: آية ٦]، وإذا خوَّفك من الموت، فرُدَّه بالأجلِ المكتوب: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣٤].

فرحةُ موحِّدٍ

الفرَحُ بالقرآنِ هو فرَحٌ بتوحيدِ الله الذي جاءت به الآيات، ودعَتْ إليه، يقول ابنُ القيِّم -رحمه الله-:

«إن كلَّ آيةٍ في القرآن هي متضمِّنةٌ للتوحيد، شاهدةٌ به، داعية إليه»[1].

«إن أعظَمَ شرَفٍ للإنسانية تسمو به إلى فوق، وتترفَّعُ به عن

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤١٧).

كل أنواع الدنيَّة، وتنضمُّ به إلى حزبِ الرحمن الغالب القويِّ: هو التوحيدُ»[1].

انظُرْ إلى كل النِّعَمِ التي تحيطُ بك، وتأمَّلْ كلَّ العطايا التي منَحَك اللهُ إيَّاها في هذه الدنيا، فلن تجدَ نعمةً أعظمَ ولا هديةً أسمى وأجملَ من نعمةِ توحيدِ الله..

«فشتانَ بين مَن يوجِّهُ ولاءه وتوكُّلَه وحَلِفَه ومَحْياه ومماته وعبادته ودعاءه لله خالقِ الكون ومَلِك الدنيا والآخرة، وبين مَن يَربِطُ ولاءه بحجَرٍ أو شجر أو بشَرٍ أو مخلوق مسيَّرٍ بيدِ الله لا يَملِكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعًا»[2].

فأنت تقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في صلاتِك..

تردِّدُها في أذكارك..

وتعلِّمُها أطفالَك، وتَسمَعُها من إمام المسجد..

وقبل أن تنامَ تقرَؤُها في صلاة الوتر..

وفي العالَمِ اليومَ قرابةُ ستةِ مليارات إنسان لم يَنطِقوا بها..

وليس في خُطَطِهم القادمة تعليمُها لأطفالهم..

ولم تسكُنْ مخاوفُهم يومًا ما بترديدها!

(١) من لطائف التفسير (ص ٦٤).

(٢) من لطائف التفسير (ص٦٥).

الفرَحُ بالآياتِ التي تدعو إلى توحيدِ الله -عز وجل-..

هو فرَحٌ.. بالاطمئنانِ الذي يسكُبُه التوحيدُ في القلوب..

وفرَحٌ.. بالسكينةِ التي تَغشَى قلوب الموحِّدين..

وفرَحٌ.. بالأمنِ الذي يحيط الموحِّدين من كل الجهات..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: آية ٨٢]..

ويُطَمئنُك القرآنُ

يتلفَّتُ لأبنائه الصِّغار، يشاهِدُ ملامحَهم البريئة..

وعباراتِهم الطفوليةَ، ثم.. تهجُمُ عليه الأسئلةُ، وتحيط به علاماتُ التعجُّب، ويتساءل بخوفٍ:

ماذا سيَصنَعُ هؤلاء الضعفاءُ إذا غادَرتُهم في يومٍ من الأيام؟!

عجبًا لهذا القلبِ المشفِق، الذي تتجاوَزُ عاطفتُه هذه الحياةَ، ويَبحَثُ عن جوابٍ لسؤال سيأتي بعد مفارَقتِه الدنيا وما عليها..

في القرآنِ الكريم آيةٌ تُفرِحُ هذا القلبَ المتوجِّع، وتَغرِسُ فيه الاطمئنانَ والارتياح، وقبل ذِكر هذه الآية.. تأمَّلْ هذه القصةَ التي أورَدها الإمام الطبريُّ في تفسيره، فيقول:

«قال السَّيْبانيُّ: كنا بالقسطنطينيةِ أيامَ مَسلَمة بن عبد الملك، وفينا ابن الدَّيْلمي، قال: فجعَلْنا نتذاكَرُ ما يكون في آخرِ الزمان، قال: فضِقْتُ ذَرْعًا بما سَمِعتُ، قال: فقلتُ لابن الدَّيْلمي: يا أبا بِشْرٍ، بوُدِّي أنه لا يولَدُ لي ولَدٌ أبدًا! قال: فضرَب بيده على مَنْكبي، وقال: يا بنَ أخي، لا تَفعَلْ، فإنه ليست مِن نسَمةٍ كتَب اللهُ لها أن تخرُجَ من صُلْبِ رجلٍ إلا وهي خارجةٌ، إن شاء وإن أبى، قال: ألا أدُلُّك على أمرٍ إن أنت أدرَكتَه نجَّاك الله منه، وإن ترَكتَ ولَدَك من بعدِك حَفِظهم اللهُ فيك؟ قال: قلتُ: بلى، قال: فتلا عند ذلك هذه الآيةَ:

﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴾..»[1] [النساء: آية ٩].

إنها آيةٌ ترسُمُ البِشْرَ في قلبِ كلِّ من يتأمَّلُها، وتُخبِره بأن الجزاءَ من جنس العمل، وأن اللهَ لا يُضِيعُ أجورَ العاملين، فإذا تعاهَدْتَ مَن حولك مِن اليتامى، فسيأتي مَن يتعاهَدُ أطفالَك من بعدِك، ويَرْعاهم، ويُحسِنُ إليهم، فجزاء الإحسان هو الإحسان.

فيا لهذا الكتابِ المبارَك، الذي يَصرِفُ عن القلوبِ الخوفَ والوَجَلَ!

والذي به تزكو النفسُ، وتأنَسُ، ولا تنقطع أفراحُها.

(١) تفسير الإمام الطبري (٨/ ١٩).

ويجبرُ كَسْرَك

وتَفرَحُ بكتابٍ جاء لينتشِلَك من لحظاتِ البؤس والألم، ويجبُرَ انكساراتِك، ويداويَ جراحَك الغائرة..

فكم مِن موقفٍ صعب لم يجبُرْك فيه سوى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم﴾ [الأنعام: آية ٨٢]..

وكم حادثٍ مفجع لم يواسِك فيه سوى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: آية ١٥٥، ١٥٦]..

وكم مِن أزمةٍ خانقة، وخَسارة لم تتوقَّعْ حصولها، لم يُنجِّك من التفكيرِ في تفاصيلِها ومآلاتها سوى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: آية ١]..

وكم مِن لحظةِ قُنوطٍ ويأس توارت من حياتِك للأبد وأنت تتلو: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: آية ٤٩]..

لأَزيدَنَّكم

آياتُ الشكر تُبهِج قلبَ كل شاكر..

وتُخبِرُه بأن اللهَ أعَدَّ له عطاءً مذهلًا، وجزاءً مبهرًا..

وبأنه يسيرُ على خُطَى الأنبياء الشاكرين..

فالشاكرُ ستأتيه الزيادة..

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: آية ٧]..

إنّ النعمة لا تبقى، بل تزيد، وتكثر، وتتضاعف! فحدثني عن الفرح الذي تهبّ نسائمه على نفس تتلو هذه الآية العظيمة، فتتيقّن أنّ ما لديها من النعم في طريقه إلى الزيادة بفضل الشكر الذي هداها ربّها له..

والشاكر يحمي نفسَه من عذاب الله..

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: آية ١٤٧]..

ووصَفَ اللهُ عبادَه العظماء بالشكرِ، فقال عن نوح عليه السلام:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: آية ٣]..

وأثنى سبحانه على خليلِه إبراهيمَ -عليه السلام- بشُكْرِ نِعَمِه، فقال:

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: آية ١٢١]..

وأخبَرَ أنَّ رِضاه في شُكْرِه، فقال:

﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: آية ٧]..

وقد وقَفَ سبحانه كثيرًا من الجزاءِ على المشيئة، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة: آية ٢٨]..

وقال في الإجابة: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام: آية ٤١]..

وقال في الرزق: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: آية ٢١٢]..

وقال في التوبة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: آية ١٥]..

وأطلَقَ جزاءَ الشكر إطلاقًا حيث ذُكِر، كقوله:

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: آية ١٤٥]..

وقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1] [آل عمران: آية ١٤٤]..

بقـــاءٌ

لن ينقطِعَ العملُ الصالح بسبب المرضِ الـمُقعِد، والعجزِ المستمر..

هذه بشرَى قرآنيةٌ يَفرَحُ بها مَن تأمَّلَها، وهي تَزرَعُ الأمانَ لأصحاب الأعمال الصالحةِ، الذين أتعَبتْ أجسادَهم الأمراضُ، وأوهَنتْ أرواحَهم الأسقامُ.. يقول تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الإنشقاق: آية ٢٥]..

يقول ابن عباسٍ رضي الله عنهما:

«أيما رجُلٍ كان يعمل صالحًا وهو قويٌّ شاب، فعجَزَ عنه، جرى له أجرُ ذلك العمل حتى يموتَ».

---

(١) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص ٩٨) بتصرف.

يقول الإمام الطبريُّ رحمه الله:

«فإن الذي كانوا يَعمَلونه من الخيرِ في حال صحةِ عقولهم، وسلامةِ أبدانهم جارٍ لهم بعد هَرَمِهم وخَرَفِهم»[1].

ويقول تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الإنشقاق: آية ٢٥]..

ذكَر الإمام القرطبيُّ عن السُّديِّ: (نزَلتْ في المَرْضى والهَرْمى، إذا ضعُفوا عن الطاعةِ، كُتِب لهم من الأجرِ كأصحِّ ما كانوا يعملون فيه).

فرحة مؤمنٍ

وسيَفرَحُ بالقرآنِ من اختار طريقَ الإيمان، وسعى في زيادته، وسأل اللهَ كثيرًا الثباتَ عليه؛ لأن في كتابِ الله أكثَرَ من مائةِ هبةٍ وعطية لأهلِ الإيمان، كلُّ هبةٍ منها خيرٌ من الدنيا وما فيها.

فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

ومنها: الدفعُ عنهم شرورَ الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨].

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٩٩).

ومنها: استغفار حَمَلةِ العرش لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

ومنها: موالاةُ الله لهم، ولا يَذِلُّ مَن والاه اللهُ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمرُه ملائكتَه بتثبيتهم: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجاتِ عند ربهم، والمغفرةَ، والرزق الكريم.

ومنها: العِزَّة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها: معيةُ الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنها: إعطاؤهم كِفْلينِ من رحمته، وإعطاؤهم نورًا يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الوُدُّ الذي يَجعَله سبحانه لهم، وهو أنه يحبُّهم، ويحبِّبُهم إلى ملائكته وأنبيائه وعبادِه الصالحين.

ومنها: أمانُهم من الخوفِ يوم يشتد الخوفُ: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أنهم المنعَمُ عليهم الذين أُمِرْنا أن نسألَه أن يهديَنا إلى صراطهم في كل يومٍ وليلة سَبْعَ عَشْرةَ مرةً.

ومنها: أن القرآنَ إنما هو هدًى لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤](١).

لكم!

وتبتهجُ بكتابٍ جاءك ليُدهِشَك بكرَمِ الله، وأن كلَّ الأشياء التي مِن حولك مسخَّرةٌ لك، ومن أجلِ أن تعيشَ كريمًا سعيدًا في هذه الحياة..

تُخبِرُك الآياتُ أن الكونَ المدهش الذي تراه مسخَّرٌ لك، فسماواتٌ يَنزِلُ منها الماء.. وبحرٌ عظيم تجري فيه الفُلْكُ مسخَّرةً للإنسان بأمرِ الله.. وأنهار تتدفَّقُ بالجمالِ والعذوبة، من أجلِ أن يَنعَمَ بخيراتها البشرُ.. وشمسٌ لا تسأمُ من الحركة.. وقمرٌ لا يفتُرُ ولا يتوقف.. وليلٌ يعقُبُه نهار.. كلُّ ذلك من أجلك أيها الإنسانُ!

وهذه جولةٌ مع عطايا "لكم" التي تستحقُّ فرَحًا وسرورًا بكتابٍ جاء ليُخبِرَك أنك كريمٌ عند الله، فاللهُ يقول في كتابه:

﴿سَخَّرَ لَكُمْ﴾ [الجاثية: ١٢]..

---

(١) الجواب الكافي (ص ٧١-٧٣).

﴿خَلَقَ لَكُم﴾ [الروم: ٢١]..

﴿جَعَلَ لَكُم﴾ [النحل: ١٠]..

﴿ذَرَأَ لَكُمْ﴾ [النحل: ١٣]..

﴿يُنْبِتُ لَكُم﴾ [النحل: ١١]..

﴿يُزْجِي لَكُمُ﴾ [الإسراء: ٦٦]..

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ [عبس: ٣٢]..

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ [الزمر: ٦]..

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢]..

﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ [النحل: ٥]..

فما الذي يحول بينك وبين الفرح وأنت تقرأ هذه النعم، وهذه العطايا، ولهذه الهبات التي أتتك دون أن تسألها!

شفاءٌ ورحمةٌ

وتَفرَحُ بكتابٍ جاء ليَشفِيَ أوجاعَك..

ويطهِّرَ فؤادَك..

ويزيلَ الهمَّ الذي يَنهَشُ في قلبِك ليُفسِدَ عليك الحياة!

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]..

يقول الشيخ السعديُّ رحمه الله:

«فالقرآن مشتمِلٌ على الشفاءِ والرحمة، وليس ذلك لكل أحدٍ، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدِّقين بآياته، العاملين به، وأما الظالمون بعدم التصديقِ به أو عدَمِ العمل به، فلا تَزيدُهم آياتُه إلا خَسارًا؛ إذ به تقوم عليهم الحجةُ، فالشفاءُ الذي تضمَّنَه القرآنُ عامٌّ لشفاءِ القلوب من الشُّبَهِ، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقُصود السيئة، فإنه مشتمِلٌ على العلمِ اليقينيِّ.. الذي تزُولُ به كلُّ شبهة وجهالة، والوعظِ والتذكير.. الذي تزُولُ به كلُّ شهوة تخالِف أمرَ الله، ولشفاءِ الأبدان من آلامها وأسقامها.

وأما الرحمةُ، فإن ما فيه من الأسبابِ والوسائل التي يحُثُّ عليها، متى فعَلَها العبدُ، فاز بالرحمةِ والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل»[1].

يقول ابنُ القيم رحمه الله:

«لم يُنزِلِ اللهُ -سبحانه وتعالى- من السماءِ شفاءً قط أعمَّ ولا أنفعَ ولا أعظم ولا أنجعَ في إزالة الداءِ من القرآن»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٦٥).

(٢) الداء والدواء (ص: ١١).

تقوى

إنَّ فرَحَ المتقين بكتابِ الله يجب ألا يَعدِلَه أيُّ فرَحٍ، ولا يقارِبَه أيُّ ابتهاج، ولا تدانيَه أيُّ مسرَّة، فالقرآن الكريم كثيرًا ما يذكُرُ أجورَ المتقين، وما أعَدَّه اللهُ لهم من العطايا، ومِن المنازل العالية، ومن الرزق، ومن كفايةِ هَمِّ الدنيا والآخرة..

وتعالَ أيها القارئُ المبارَك لشيءٍ من هذه المباهجِ والأفراح:

١- **الفلاح في الدنيا والآخرة:** ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٢- **معيةُ الله:** ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٣٦].

٣- **رحمة الله -عز وجل-:** ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

٤- **الأمنُ من الخوفِ والفزع والحزن يوم القيامة:** ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

٥- **الثواب الأوفى من اللهِ -عز وجل-:** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ

لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٣].

٦- الأجر العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

٧- تكفير السيئات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المائدة: ٦٥]، ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق:٥].

٨- سَعة الرزق: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٩ - الحفظُ من الأعداء: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

١٠ - التأييد بالجُنْدِ عند الأزمات والشدائد: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

١١ - نورٌ في قلوبِ المتقين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل

لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

١٢- **مَخرجٌ ورِزق:** ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

١٣- **تيسيرُ الأمور:** ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٧].

١٤- **فوزٌ:** ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

١٥- **حفظٌ للأولاد بعد الموتِ:** ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

١٦- **منزلةٌ:** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

١٧- **محبةُ الله -عز وجل-:** ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: آية ٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: آية ٧].

١٨- **قبولٌ:** ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: آية ٢٧].

١٩- وَلايةٌ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: آية ١٩].

٢٠- أجمَلُ منظرٍ، وأبهى مَقامٍ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: آية ٨٥].

٢١- حسنُ العاقبةِ في الدنيا والآخرة: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩]، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

٢٢- النجاةُ من عذاب النار: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]، ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: آية ٦١]، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل: آية ١٧].

٢٣- الفوز بالجنةِ وما فيها من نعيمٍ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: آية ٥٢]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: آية ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: آية ٤١]، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: آية ٣١-٣٦].

وللتائبِ العائدِ فرحةٌ أخرى بكتاب الله، فحين يقع الإنسانُ في الخطأ تُظلِمُ الحياةُ في عينيه، ويتوقفُ عن العمل، ويحطِّمُه القُنوط.

القرآنُ الكريم يزيل هذه الآلامَ، ويملأ قلبَ النادمِ المتوجِّع بالأمل.

ويُخبِرُه برحمةِ الله ولُطْفِه، وأن اللهَ يَقبَل التوبةَ عن عباده، ويتجاوَزُ عنهم إذا أقبَلوا عليه وسألوه المغفرةَ..

فكلُّ آيةٍ تتحدّثُ عن ثمراتِ التوبة والإنابة هي شعلةٌ تُضِيءُ حياةَ النادم المتوجِّع، فتارة تُخبِرُه الآياتُ بقَبول توبته إن جاء مقبِلًا مصلِحًا..

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: آية ٣٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأعراف: آية ١٥٣].

والأمرُ يتجاوز قَبولَ التوبةِ، والعفوَ عن الخطأ، ومحوَ الزَّلةِ.. إلى تبديلِ السيئاتِ حسناتٍ..

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: آية ٧٠].

يقول ابنُ قُدَامةَ:

«لقد أمَرنا اللهُ تعالى بالتوبةِ، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: آية ٨]، أي: توبةً صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلُمُّ شعَثَ التائبِ وتجمَعه، وتكُفُّه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

ووعَدَ القَبولَ عليها، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الفرقان: آية ٧٠].

وفتَحَ بابَ الرجاء، فقال: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: آية ٥٣].

وأمَرنا أن نلتمِسَ النجاةَ على عجَلٍ، وأن نبادِرَ إلى التوبةِ قبل دنوِّ الأجل، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾..»[1] [النساء: آية ١٧].

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص ٣٠٩).

الغـــنيُّ

يُخبِرُك القرآنُ بأن الذي تَدْعوه، وترجوه، وتسأله «غنيٌّ»، له ما في السماوات والأرض، وعليمٌ بصير لا تَخفَى عليه خافيةٌ، فيَعلَم بضعفِك، ولا تَخفَى عليه حاجتُك..

فتبتهِجُ بذلك وتُسَر.

تأمَّلْ..

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء: آية ١٢٦].

يقول الشيخ السعديُّ رحمه الله:

«وهذه الآيةُ الكريمة فيها بيانُ إحاطةِ الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبرَ أنَّ له ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: الجميعُ مِلْكُه وعَبيدُه، فهم المملوكون وهو المالك المتفرِّدُ بتدبيرهم، وقد أحاط عِلْمُهُ بجميعِ المعلومات، وبصَرُه بجميعِ المبصَرات، وسَمْعُه بجميع المسموعات، ونفَذتْ مشيئتُه وقدرته بجميعِ الموجودات، ووَسِعتْ رحمتُه أهل الأرض والسماوات، وقهَرَ بعِزِّهِ وقَهْرِهِ كلَّ مخلوق، ودانت له جميعُ الأشياء»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٤٥).

إذا استقرَّتْ هذه المعاني في قلبِ المؤمن، فلن يتوقَّفَ عن إشعالِ قناديلِ الفرَحِ في حياته، ولن يجدَ عدوُّه الأولُ طريقًا لقلبه كي يملأَه خوفًا وقلَقًا من القادم المجهول!

لا تخَــفْ..

وتَفرَحُ بكتابٍ يُطَمئنُ قلبَك.. بأن الذي ستَذهَبُ إليه في يومٍ قادم عَدْلٌ وكريم.

فحسناتُك لن تَضِيعَ..

أعمالك الصالحة لن تَذهَبَ سُدًى..

ستجدُها كاملةً.. بل مضاعفة!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: آية ٤٠].

وللشيخ السعديِّ -رحمه الله- كلام نفيسٌ في تفسير هذه الآية، فيقول:

«يُخبِر تعالى عن كمالِ عدلِه وفضله، وتنزُّهِه عما يضادُّ ذلك من الظُّلْم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾، أي: ينقُصُها من حسناتِ عبده، أو يَزيدُها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ

﴿ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: آية ٧-٨]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، أي: إلى عشرةِ أمثالها، إلى أكثرَ من ذلك، بحسَبِ حالها، ونفعِها، وحال صاحبِها، إخلاصًا، ومحبة، وكمالًا.. ﴿ويؤت من لدنه أجرًا عظيما﴾، أي: زيادةً على ثوابِ العمل بنفسِه من التوفيق لأعمالٍ أُخَرَ، وإعطاءِ البِر الكثير، والخير الغزير»[1].

بقَدَرٍ ومِقدار

وتَفرَحُ بكتابٍ يُخبِرُك أن حياتَك ليست فوضى..

وأن وجودَك في هذه الدنيا لم يأتِ عبثًا..

وأن كلَّ ما يُحيطك لِحكمةٍ، وأن كلَّ الأحداثِ التي تشاهِدُها في حياتك مرسومةٌ بدقة، لا وجودَ لمصادَفاتٍ، ولا عبثٍ، بل كلُّ شيءٍ بتقديرٍ، وبلُطْفٍ، وتدبيرٍ مُحكَم..

فيقول حتى تطمئنَّ:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: آية ٤٩]..

ويقول -عز وجل-: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: آية ٨]..

ويقول تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: آية ٢١]..

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٣٠٨).

ويقول سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: آية ٢]..

فاذكروني

أيُّ شيءٍ أبهَجُ لقلبِ الذاكر، وأشرَحُ لصدره، وأحلى في فؤاده.. مِن تأمُّلِ أجورِ الذاكرين التي جاء بها كتابُ الله؟!

فسيبتهجُ الذاكرُ بكتابٍ يبشِّرُه بثمراتِ ذِكره لله:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: آية ١٤-١٥]..

وسيغتبطُ بآياتٍ تُخبِرُه بدرجاتِ الذاكرين اللهَ كثيرًا:

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: آية ٣٥]..

وسيتهلَّلُ حُبورًا بآيةٍ عظيمة تصفُ له النعيمَ الذي يحصُلُ عليه الذاكرُ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: آية ٢٨]..

ويقفُ الذاكر مدهوشًا، عاجزًا عن التعبير، عاجزًا عن الوصفِ، مذهولًا من العطاءِ، فَرِحًا بالجزاء، فالله ذو الجلالِ والكمال والعظَمة يقول:

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: آية ١٥٢]..

عن أفراحِ هذه الآيةِ يقولُ أحدُ العُبَّاد: «قِفْ عند ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾، ولا تَعجَلْ، فلو استقَرَّ فرَحُها في قلبِك، ما جفَّتْ شَفَتاك من ذِكْره»!

حمـــاية

تأتيه خائفًا وَجِلًا، قد أرهَقتِ المخاوفُ قلبَك..

تأتيه والفزَعُ يحيطُ بك، والقلَقُ يرسُمُ أبشعَ الخيالاتِ في ذهنك..

فتُعلِن اللجوءَ الكامل إليه، والركون الأبديَّ لجَنابِه، فتَنزِلُ على قلبِك الخائف معاني السكينة، وتتغشّاك الطُّمَأنينة، وتُحِيط بك الحماية...

فرَبُّ الفلَقِ يَسمَعُك، وربُّ الناسِ يسمع ما يقوله عنك الناس، والـمَلِكُ الذي خلَقَ، والإلهُ الذي تلُوذُ به الخلائقُ، والعظيم الذي يصغُرُ أمام ذِكره الكلُّ يَسمَعُ ويرى.

إنه ابتهاجٌ بسُورتينِ تُخبِرانِ برعايةِ الله وحفظِه لهذا الإنسان، الذي ليس له حولٌ ولا قوة إلا بهذا الربِّ العظيم!

فكم مرةٍ زارك الفزَعُ والخوف وبدَّدتْهُ سورةُ الفلَقِ!

كم مرةٍ قلتَ وأنت ترقُبُ الأمنَ والنجاة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فغَشِيتْ قلبَك الخائفَ سكينةٌ سرَتْ لرُوحك، وأزالت كُرْبتَك ووَحْشتَك!

عن عُقْبَةَ بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تر آياتٍ أُنزِلت الليلةَ لم يُرَ مثلُهنَّ): ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[1].

يُسْــــرًا

﴿إن مع العسر يسرا﴾ [الشرح: آية ٦]..

كيف يقرأُ المهمومُ هذه الآيةَ ثم يمضي في تلاوتِه دون أن تغيِّرَ هذه الآيةُ وَحْدَها مسارَ حياته؟!

ودون أن تَبعَثَ الاطمئنانَ في قلبه المتوجِّع؟!

وتنشُرَ الأمانَ في فؤاده الخائف؟!

فالآيةُ تُخبِرُه أن العُسْرَ سيرَحَل، وأن الحياةَ ستُشرِق بأنوار اليُسْرِ والنجاة.

فكلُّ الآلام ستُصبِح ذِكرَى عابرةً..

وكلُّ الأحزان سيطويها النسيانُ...للأبد..

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٣).

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: آية ٢٩]..

يُخبِرُك القرآنُ بعظَمةِ الذي تطلُبُ منه حاجاتِك، وتسأله تفريجَ همومك، فكلُّ الذين في السماوات وفي الأرض يَرفعون إليه حاجاتِهم، ويسألونه من فضلِه، والربُّ الرحيم بخَلْقه يُعطي بلا منَّةٍ، ويُغدِق عليهم من الخيراتِ بلا حدٍّ.

يسطِّرُ ابن القيِّم -رحمه الله- كلماتٍ كتبَها بمدادٍ من نورٍ عن هذه الآيةِ العظيمة التي تُخبِرُ بجلالِ الله وعظمته، فيقول رحمه الله في قوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: «يَغفِر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويَكشِف غمًّا، وينصُرُ مظلومًا، ويأخذ ظالـمًا، ويفُكُّ عانيًا، ويُغْني فقيرًا، ويجبُرُ كسيرًا، ويَشفي مريضًا، ويُقِيلُ عثرة، ويستُرُ عورة، ويُعِز ذليلًا، ويُذِل عزيزًا، ويُعطي سائلًا، ويَذهَبُ بدولةٍ، ويأتي بأخرى، ويداوِلُ الأيامَ بين الناس، ويَرفَع أقوامًا، ويضع آخَرين، يسُوقُ المقاديرَ التي قدَّرَها قبل خَلْقِ السماوات والأرض بخمسين ألفَ عامٍ إلى مواقيتها، فلا يتقدَّمُ شيءٌ منها عن وقتِه ولا يتأخر، بل كلٌّ منها قد أحصاه كتابُه، وجرى به قلمُه، ونفَذَ فيه حُكْمُه، وسبَقَ به عِلْمُه، فهو المتصرِّفُ في الممالك كلِّها وحده تصرُّفَ مَلِكٍ قادرٍ قاهرٍ عادلٍ رحيمٍ تامِّ الـمُلْكِ، لا ينازِعُه في مُلْكِه منازِعٌ، ولا يعارضه فيه معارِضٌ»[1].

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٢٤).

يا عبـادي!

ويَفرَحُ العبادُ بكل آية فيها "عبادي"، لأنها تأتي وتأتي معها العطايا والأفراحُ..

ففي كتابِ الله آياتٌ عن عِباد الله، وعن منازِلِهم، وعن حمايتهم، واستجابةِ الله لدعَواتهم وابتهالاتهم.

اللهُ الغنيُّ عن خَلْقه، وعن أعمالهم، وعن عبادتهم.. يُنعِم على عباده بهذه الهباتِ.. ويرزُقُهم هذه الامتيازاتِ التي يتغلَّبون بها على ألمِ الحياة ومواجعِ الدنيا، ويستبشرون بوعودها القادمة، ومباهجِها التي لا تنقطع.

فاللهُ يَحفَظ عبادَه من الشيطان..

ويلطُفُ بهم..

وهو قريبٌ منهم..

يَغفِرُ ذنوبهم..

ويَقبَلُ توبتَهم..

ويَرحَمُهم.. ويؤمِّنهم يومَ الفزَعِ الأكبر..

ويُدخِلُهم الجنَّةَ..

وكلُّ هذه البشائرِ والوعود في كتابِه الكريم، الذي جاء بالبشرى، وبالعطاء الدائم، وبالنعيم الخالد..

فكلما قرَأْنا هذه الامتيازاتِ المذهلةَ لعباد الله، لاحت من جديدٍ تلك الآيةُ العظيمة:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: آية ٥٨]..

فيزدادُ الفرَحُ، وتعظُمُ البشرى!

حماية

العدو متربِّصٌ، ينتظر لحظةَ غفلةٍ؛ لكي ينقضَّ بكل قوتِه على فريسته، العدوُّ لديه قدراتٌ وإمكانيات وجيوشٌ من الأتباع، ولن تهدأَ أنفاسُه وتسكُنَ نفسُه حتى يأخذَ فريستَه معه للحُطَمة، ولكنَّ اللهَ يَحفَظ عبادَه من هذا العدوِّ، ويُنجِّيهم من مكرِ الشيطان وإغوائه وضلالاته، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: آية ٤٢]..

يقول الشيخ السعدي رحمه الله:

«بسبب عبوديتِهم لربهم، وانقيادهم لأوامرِه، أعانهم اللهُ، وعصَمَهم من الشيطان»[1].

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٣١)

لُطْــف..

الإنسانُ في جميع أحوالِه بحاجةٍ إلى العونِ الإلهي، واللُّطف الرباني، فهو ضعيفٌ بدون هذا العونِ، منهزمٌ بدون هذا اللُّطف والـمَدَد..

وعبادُ الله في مأمنٍ دائم، وفي عون لا ينقطعُ، وفي رعايةٍ مِن الله لا تتوقفُ، ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: آية ١٩]..

تعالَوْا في هذه الجولةِ، مع الإمام القرطبيِّ في تفسيرِه العظيم لهذه الآية، وتَطْوافه المبهِر في أقوال العلماء في معنى هذا اللُّطف..

«﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾، قال ابن عباس: حَفِيٌّ بهم، وقال عكرمةُ: بارٌّ بهم، وقال السُّدِّي: رفيقٌ بهم، وقال مقاتل: لطيفٌ بالبَرِّ والفاجر، حيث لم يقتُلْهم جوعًا بمعاصيهم، وقال القُرَظيُّ: لطيفٌ بهم في العَرْض والمحاسَبة، وقال جعفر بن محمد: يلطُفُ بهم في الرزقِ من وجهينِ، أحدهما: أنه جعَلَ رزقَك من الطيبات، والثاني: أنه لم يَدفَعْهُ إليك مرةً واحدة فتبذِّرَه، وقال الحسين بن الفضل: لطيفٌ بهم في القرآنِ وتفصيله وتفسيره، وقال الجُنَيد: لطيفٌ بأوليائه حتى عرَفوه، ولو لطَفَ بأعدائه لَمَا جحَدوه، وقال محمد بن علي الكَتَّاني: اللطيفُ بمن لجأ إليه من عباده، إذا يَئِسَ من الخَلْقِ توكَّلَ عليه ورجَعَ إليه، فحينئذٍ يَقبَله ويُقبِل عليه، وقيل: هو

الذي لا يعاجِلُ مَن عصاه، ولا يخيِّبُ مَن رجَاه، وقيل: هو الذي لا يرُدُّ سائلَه، وقيل: هو الذي يعفو عمَّن يهفو، وقيل: هو الذي يَرحَم مَن لا يَرحَم نفسَه، وقيل: هو الذي أوقَدَ في أسرارِ العارفين من المشاهدةِ سراجًا، وجعَلَ الصراطَ المستقيم لهم منهاجًا، وأجزَلَ لهم من سحائبِ بِرِّه ماءً ثجَّاجًا»[1].

قُــــرْبٌ..

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: آية ١٨٩]..

قريب من كل النفوس المتعبة..

قريب من كل القلوب المضطربة..

قريب من كل الأنفاس المحطّمة..

قريب من كل الأمنيات المعلّقة..

أفراحُ الراحلين

وعندما يأتي الحديثُ عن لحظةِ مغادرةِ الحياة، تجُولُ في النفسِ تساؤلاتٌ:

يا تُرى كيف ستكونُ اللحظة الأخيرة والتفاصيل الأخيرة؟!

ومن ثمَّ يتسللُ الخوف الفطريُّ والقلق اللاشعوري..

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ١٧،١٦).

ولن ننتصِرَ على هذه المخاوفِ إلا بالوقوفِ أمام كل آيةٍ تُخبِرُ بأن هذه اللحظاتِ- رغم ما يحيطها من أحداثٍ- ستكون على البعضِ مختلِفةً، ومبهِجةً، وأن فيها تثبيتًا وتطمينًا من الملائكةِ القادمة من السماء لهذا الإنسانِ الخائف الوَجِلِ، الذي يقف أمام أصعَبِ لحظةٍ في حياته، يقول تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: آية ٣٠]..

لا تخَفْ.. من الأحداثِ القادمة التي بدأتَ مشاهَدتِها..

ولا تَحزَنْ.. على كل الأشياءِ الجميلة التي تركتَها خلفك..

وأبشِرْ.. بتلك الجنةِ التي كنت تَسمَعُ عنها، وترجو اللهَ كثيرًا أن تكونَ من أهلها..

تلك الجنَّةِ التي كنت تتعزَّى بها، وتَعمَلُ من أجلِها، وتَصبِرِ من أجلها، وتحتسِب ما يصيبُك من أجلها..

وتسكِّنُ الملائكةُ الفؤادَ الخائف:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.. [فصلت: آية ٣١]..

نحن الذين كنّا معكم..

نحميكم بأمرِ الله..

ونحيطكم برعاية الله..

ونَحفَظكم من المهالك..

(نحن الحفَظةُ الذين كنا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة)[1].

قال مجاهدٌ:

«﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ ﴾، أي: نحن قُرَناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة، قالوا: لا نفارِقُكم حتى نُدخِلَكم الجنةَ»[2].



(١) الطبري (٢١/ ٤٦٨).

(٢) الطبري (٢١/ ٤٦٨).

أفراحُ الآخرةِ..

لو جاءت "خيرٌ" وَحْدَها، لأشعَلتْ قناديلَ الفرَحِ، والترقُّب، والشوق.. كيف وقد جاءت بصحبتِها «وأبقى» التي تُخبِرُ أنْ لا وداعَ، ولا غُصَصَ، ولا نهاية؟!



أفراح الآخرة

وتأتي الآياتُ القرآنية لتُخبِرَ بفرَحٍ آخرَ..

له نكهتُه المختلفة..

إنه الفرَحُ بالآياتِ التي تبشِّرك بالوعودِ القادمة، والهبات التي ستأتي..

عن ميمونِ بن مهرانَ، قال: «مَن تَبعَ القرآنَ: قاده القرآنُ حتى يحُلَّ به في الجنَّةِ»[1].

فالوجودُ على هذه الأرض موقوتٌ محدود بهذا العمرِ القصير، المنغَّصِ بأنواع الهموم، والأزمات، والمصائب، والحياةُ الباقية الملأى بكل نعيمٍ هناك في الجنة..

يقول ابنُ الجوزيِّ رحمه الله:

«واللهِ، إني لأتخايَلُ دخولَ الجنَّة، ودوامَ الإقامة فيها، من غير مرَضٍ، ولا نومٍ، ولا آفةٍ تطرأُ! بل صحةٌ دائمةٌ، وأغراض متصلة، لا يعتوِرُها منغِّصٌ، في نعيمٍ متجدِّد في كل لحظة، إلى زيادةٍ

(١) حلية الأولياء (٤/ ٨٤).

لا تَتناهى... فأطيشُ، ويكاد الطبعُ يَضِيقُ عن تصديقِ ذلك، لولا أن الشرَعَ قد ضَمِنه!»[1].

لن تُخذَلَ

النقاشات اليومية لا تنتهي..

والخصومات في تزايُدٍ..

وقد تنتهي العلاقةُ على خلافٍ لم يتم الفصلُ فيه..

وقد ينتهي العمرُ كلُّه على أزمة لم تُحَلَّ..

فيتجرَّعُ المظلومُ غُصَصَ الأحزان، لأنه فَشِلَ في مجاراةِ الظالم الذي كان مدجَّجًا بالصوت العالي وبالصُّراخ.

أمامَ هذه المشاهد، تُطفَأُ شموعُ الفرَحِ، وبين يدَيْ لحظاتِ الخلاف تُحتضَرُ المسرَّات..

في القرآنِ الكريم تطمينٌ عجيب لكل الذين انكسَرتْ أرواحُهم ذات يوم، ولم يجِدوا مَن يرمِّمُ هذه الانكساراتِ، فيه سكينةٌ كبرى لكل الذين أودَعوا آلامَهم أرشيفَ النسيان، لعجزِهم عن مواجهةِ صراخ الخصوم، فيه إشعالٌ لقناديلِ الفرَحِ التي انطفأت طَوالَ العمر..

---

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، (١/ ٣٤٠).

يقول تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان: آية ٤٠]..

يقول الشيخ السعدي رحمه الله:

«وهو يوم القيامة الذي يَفصِلُ اللهُ به بين الأولين والآخرين، وبين كل مختلِفين»(١).

إذَنْ هذه الآيةُ في غاية الوضوح..

وهي آيةٌ تملأ قلبَ المحزون بالأمل والفرح.

فلن تَضِيعَ الدموعُ سُدًى، ولن ينتصرَ الصراخُ على الحق، ولن تَذهَبَ المعاملاتُ إلى أرشيفِ النسيان.

يقول الشيخُ محمد صالح العثيمين -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴾ [النبأ: آية ١٧]:

«وهو يومُ القيامة، وسُمِّيَ يومَ الفصل؛ لأن اللهَ يَفصِلُ فيه بين العباد فيما شجَرَ بينهم، وفيما كانوا يختلفون فيه»(٢).

فهناك.. في يوم القيامة ستُحَلُّ كلُّ القضايا العالقة، وسيتم الفصلُ بين المتخاصِمين، ويأخذ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، فالذي يتولى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٠٧٦).

(٢) تفسير ابن عثيمين (ج ١٦، ص ٦).

القضاءَ والحُكْمَ والفصلَ بين الخلائق هو اللهُ الربُّ العدل الذي لا يَظلِمُ، ولا يحب الظالمين.

أفراحُ الخلودِ

أفراحُ الدنيا مشُوبةٌ بألم النهاية..

بوجَعِ الحلقة الأخيرة..

فاللقاء يعقُبُه وداعٌ..

والاجتماع في نهايته فِراق..

وأن الوجودَ في الأرض موقوتٌ محدود بهذا العمرِ القصير، المنغَّصِ بالهموم والمصائب والآثام.

وحتى لو غفَلْنا عن هذه الحقيقةِ، فإن النصوصَ الكثيرة تُعِيدُنا إليها، وتُخبِرُنا عنها.

"عِشْ ما شئتَ، فإنك ميِّتٌ، وأحبِبْ مَن شئتَ، فإنك مفارِقُه"..

ولو عرَفْنا حقيقةَ الدنيا وما الهدفُ من وجودنا عليها، لأدرَكْنا أن هذه النهاياتِ لا تعكِّرُ صفوَ الحياة، ولكنها تُخبِرُنا بحقيقتها، فهي مرحلةٌ وستنتهي، وطريق سيوصلنا لمكانٍ آخرَ، فيه الخلود الأبديُّ، الذي لا نهايةَ فيه، فيقودُنا هذا اليقينُ إلى التعامل الأمثلِ مع كل معكِّرات الحياة، ونوازل العمر.

وعَبْرَ هذا التأمُّل العابر، تأتي: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [المائدة: آية ١١٩]، وتأتي : ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [الحديد: آية ١٢] وتأتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الأحقاف: آية ١٤] ..

تأتي هذه الآيات الكريمات وشبيهاتها لتُخبِرَ عن البقاء الذي ليس له نهاية..

عن الخلودِ الذي لا تعكِّره نهاية.. والبقاء الذي لا يعقُبُه ارتحالٌ.. واللقاء الذي لا يُفسِدُه وداع.. والاجتماع الذي لن يقال بحضرته في يومٍ من الأيام: (أحسَنَ اللهُ عزاءكم، ورَحِم اللهُ موتاكم)!

الفرَحُ بكل آيةٍ تُخبِرُ بالخلود في الجنة.. هو فرَحٌ بالعطاءِ الإلهي الكبير.. هو فرَحٌ بالكرَمِ الذي لا يَقدِرُ عليه إلا اللهُ.

لـــن تحـــزَنَ

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: آية ٣٤]..

لن يلتقيَ أهلُ الجنة بهذا الحَزَنِ..

لن يعكِّرَ حياتَهم ويُفسِدَها عليهم..

أيُّ عطاءٍ أجمَلُ من حياةٍ طويلة ممتدة لا حَزَنَ فيها؟!

ولا معكِّراتِ تُفسِدُ صَفْوَها؟!

فلا وجَعَ..

ولا موتَ..

ولا جوعَ..

ولا خوفَ من الخروج..

وَحْدَه القرآنُ يسكُبُ الاطمئنانَ في قلب متأمِّلِه.

فيَفرَحُ به، ويبتهج بكل وعدٍ قادم سيأتي في يومٍ من الأيام.

هـــدوء

تعكِّرُ العباراتُ السيئة والنقاشات المحتدِمة جمالَ اللحظة.. فكم أفسَدتِ الأصواتُ العالية الأجواءَ الهادئة!

كم غادرت السكينةُ بلا رجعةٍ تلك المجالسَ المتخَمة بالضجيج..

وحين يشتاق المرءُ إلى مكانٍ لا يَسمَعُ فيه ما يعكِّرُ عليه صَفْوَ يومِه، ويُفسِد عليه سكونَ حياته.. فإن هذه الأشواقَ ستقودُه حتمًا إلى آيةٍ يَنعَمُ بخيالِه مع أفراحها المذهلة ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾..

يحدثنا القرآن عن الراحة، عن السكينة، عن عدم الإزعاج..

كيف ستتلقى هذه البشارة تلك الأرواح التي قهرتها القهقهات اللاذعة، وضوضاء الحياة اليوميّة، المليئة باللغو، والسباب، والشتائم!

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: آية ١١].. هل هناك أهدأ من هذا المكان، الذي لا يسمع المؤمن فيه ما ينكّد عليه! لا يسمع غير جمال خرير الماء، وغناء العصافير، وتسبيح الملائكة..

متَّكِئين

ويَفرَحُ قارئُ القرآن بكل آيةٍ تُخبِرُه بتفاصيلِ الحياة الممتعة في الجنة..

فهناك.. زالت التكاليفُ..

وانتهى النَّصَبُ..

وليس سوى التكريم.. والاتكاءِ الذي لا يعقُبُه كَدٌّ ولا تعَبٌ..

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: آية ٢٠]..

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: آية ٥٤]..

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: آية ٧٦]..

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: آية ١٦]..

ما مقدار فرح أولئك الذين انتصبت ظهورهم في الليالي التي كانوا قليلًا ما يهجعون فيها؟ وتعبت أجسادهم لتعليم أبناء المسلمين القرآن، وأرهقت نفوسهم وهم يوزّعون الصدقات على المحاويج، وأضنيت أرواحهم وهم يتلقّون سهام الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمّة!

ما مقدار فرحهم عندما يعلمون أنّ حياةً أحدُ شعاراتها «الاتكاء» تنتظرهم، لتمحوَ عن أجسادهم وعثاء حياة جعلوها وقفًا لمحبوبات الله؟

لا عـــذابَ

وتَفرَحُ بآيةٍ تُخبِرُ بعطاءٍ آخرَ..

ونعمةٍ كبرى..

يُدرِكُها كلُّ مَن اكتوى قلبُه من النفوسِ الحاقدة، والأرواح التي لا تسأم من إفسادِ حياة الآخرين.

يقول تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: آية ٤٧]..

هذا إخبارٌ من الله -عز وجل- أنه يُنقّي قلوبَ ساكني الجنَّة من الغِلِّ والحسد، وذلك أن صاحبَ الغل متعذِّبٌ به، ولا عذابَ في الجنة[1].

---

(١) تفسير ابن عطية (٣/ ٥٦٦).

لقـــاءٌ

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴾ [الرعد: آية ٢٣]..

ولماذا لا تسكُنُ الأرواحُ أمام هذا النصِّ القرآني الـمُطَمْئِنِ؟

وأمام هذه العطايا المذهلة..

ففي الجنةِ سيلتقي الجميع..

في لقاءٍ أبديٍّ..

لا تعكِّرُ صفوَه مخاوفُ الافتراق..

لقاءٌ لا خوفَ فيه من مرضِ الآباء..

ولا توجُّسَ من تغيُّرِ صحةِ الأبناء..

ولا رُعْبَ فيه من الموت!

فقط حياةٌ كريمة..

وأنسام عَذْبة..

وملائكةٌ لا تكفُّ عن الترحيبِ والسلام..

خيرٌ وأبقى

في حياةِ كلِّ واحد فينا حُلْمٌ لم يتحقَّقْ، أو أمنيَّةٌ لم ترَ النورَ.

هنا سكينةٌ تَغشَى القلوبَ، ونسيمٌ عَذْبٌ يجلو النفوسَ، وعزاءٌ يسكِّنُ الأرواحَ..

هنا حديثٌ عن الشيء الذي هو خيرٌ من كل آمالِنا..

وأجمَلُ من كل الأحلام التي لم نلتقِ بها..

وأعذَبُ من كل الأمنيات الغادرة..

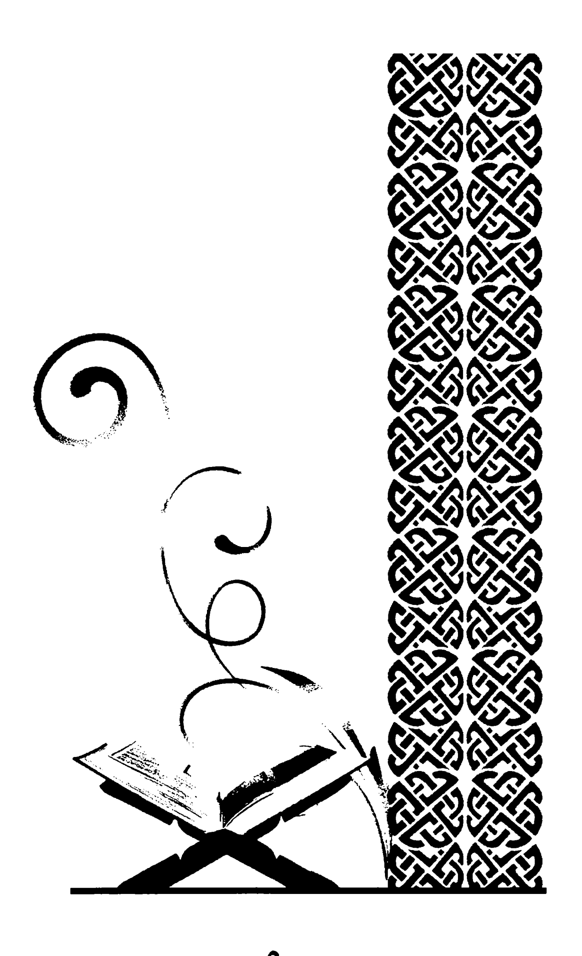
﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: آية ١٧]..

لو جاءت «خيرٌ» وَحْدَها، لأشعَلتْ قناديلَ الفرَحِ، والترقُّب، والشوق.. كيف وقد جاءت بصحبتِها «وأبقى» التي تُخبِرُ أنْ لا وداعَ، ولا غُصَصَ، ولا نهايةَ؟!

وستأتي الآخرةُ التي هي خيرٌ وأبقى، وستغادرُ الدنيا التي هي متاعُ الغرور، هذا وعدٌ من ربٍّ عظيم:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: آية ٦٠]..





فرحُ الاقْتراب

ليس شيءُ أنفَعَ للعبد في معاشه ومعاده من تدبُر القرآن

فرح الاقتراب

وثمة فرَحٌ مختلِف بالقرآن، فرَحٌ لا يعرف حلاوتَه إلا القليلُ..

ولا يشعُرُ بقيمته وأثره إلا مَن جرَّبَ بنفسه، ولم ينتظِرْ من الآخرين وصفًا لهذا الفرَحِ، وكيف يدري الطَّعْمَ من لم يذُقْ؟

إنَّه الفرَحُ بتدبُّرِ الآيات، والبحث عن أثر القرآن في القلب والحياة!

والتدبُّرُ هو الغايةُ من تنزيل القرآن: لا مجرد تلاوتِه بلا فهمٍ ولا تدبُّر، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: آية ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: آية ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: آية ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: آية ٣]..

وتعالَ لثمراتِ التدبُّر، لتُدرِكَ كم من لحظةِ فرَحٍ تستطيع أن تعيشَها مع كل ثمرة..

يقولُ ابن القيم رحمه الله:

«ليس شيءٌ أنفعَ للعبد في معاشه ومعاده من تدبُّر القرآن، وجمعِ الفِكر على معاني آياته، فإنها:

تُطلِع العبدَ على معالمِ الخير والشر بحذافيرها.

وتجعل في يدِه مفاتيحَ كنوز السعادة، والعلوم النافعة.

وتثبِّتُ قواعدَ الإيمان في قلبه.

وتُرِيه صورةَ الدنيا والآخرة في قلبه.

وتُحضِره بين الأمم، وتُريه أيامَ الله فيهم.

وتُبصِّرُه مواقعَ العِبَر.

وتُشهِدُه عدلَ الله وفضله.

وتُعرِّفُه ذاتَه وأسماءه، وصفاتِه وأفعاله، وما يحبُّه وما يُبغِضه، وصراطَه الموصل إليه.

وقواطعَ الطريق وآفاته.

وتعرِّفُه النفسَ وصفاتها.

ومفسِداتِ الأعمال ومصححاتها.

وتعرِّفُه طريقَ أهل الجنة والنار.

وأعمالَهم وأحوالهم وسِيماهم.

ومراتبَ أهل السعادة والشقاوة.

فلا تزال معانيه - أي القرآنِ الكريم-:

تُنهِضُ العبدَ إلى ربه بالوعد الجميل.

وتحذِّرُه وتخوِّفه بوعيده من العذاب الوبيل.

وتَهديه في ظُلَمِ الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل.

وتصُدُّه عن اقتحام طرق البِدَع والأضاليل.

وتبصِّرُه بحدودِ الحلال والحرام، وتوقِفه عليها؛ لئلا يتعدَّاها فيقَعَ في العناءِ الطويل.

وتناديه كلما فتَرتْ عزَماتُه: تقدَّمَ الرَّكْبُ وفاتك الدليل، فاللَّحاقَ اللحاقَ والرحيلَ الرحيل.

وفي تأمُّلِ القرآنِ وتدبُّره وتفهُّمه أضعافُ ما ذُكِر من الحِكَمِ والفوائد، وبالجملةِ فهو أعظَمُ الكنوزِ..»[1].

«إن القومَ الذين يداوِمون على قراءة كتاب الله بتدبُّرٍ وخشوع هم من أبعدِ الناس عن الحزنِ والضيق والقلق، فكما أنَّ الرُّوحَ إذا دخَلتِ الأبدانَ حرَّكتْها وأحيَتْها، كذلك تدبُّرُ القرآن إذا دخل القلوبَ، فإنه يُحْيِيها ويحرِّكُها لخشيةِ الله ومحبَّتِه، أما إذا خلَتِ القلوبُ من القرآن وتدبُّره، فإنها تموت، كما أن الجسمَ إذا خلا من الرُّوحِ فإنه يموت»[2].

فما حجمُ خسارةِ مَن زَهِد في هذه الأفراحِ التي يدعو إليها التدبُّر؟!

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥٢).

(٢) تدبر القرآن الكريم، عبداللطيف بن عبدالله التويجري، (٢٨٣).

لغـة الفـرح

وتَفرَحُ بمعجزةٍ خالدة نزَلتْ بلُغَتِك الأصليةِ التي تتحدثُ بها..

بالكلماتِ التي تَسمَعُها، وتَعرِفُها، وتُدرِك معانيَها..

ففي الوقتِ الذي تصلُ فيه الآيةُ لأعمَقِ نقطةٍ في قلبِك، ويُشرِق لها قلبُك، يحتاج الآخرون إلى تراجمَ وقواميسَ؛ لكي يعرفوا معنَى "كلمة واحدة" منها!

هل شعَرتَ يومًا ما بهذا العطاء الكبير؟!

وفَرِحتَ بهذه الهبة العظمى؟!

وسألتَ اللهَ أن تكون هذه الهبةُ عونًا على فهمِ القرآن وتدبُّره، والبحثِ عن كنوزه ودُرَره؟!

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: آية ٢٨]..

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ ... ﴾ [مريم: آية ٩٧]..

﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: آية ٣]..

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: آية ٢]..

وكلما اقتربتَ من أسرار اللغةِ، وجمالها، ودقائقها، أشعَلتَ في قلبك قناديلَ أخرى للفرح بهذا الكتابِ المبارك..

ولأن عَلاقتَهم بكتاب الله عميقةٌ، كان الفرَحُ به عميقًا وجميلًا..

لقد اقترَبوا منه حتى شاهَدوا أسرارَه، ونالوا اللذةَ التي لا تُنال إلا مع هذا الكتابِ المبارَك.

قيل لذي النُّونِ: ما الأُنُسُ بالله؟ قال: "العلمُ والقرآن»[1]. اختصر الأنس بالله في العلم والقرآن، لأنّه يعلم جيّدًا بتلك النسمات التي تهبّ ساعة قراءة هذا الكتاب العظيم..

أما الإمام سفيان الثوري فيدلي بتصريح عجيب فيقول: «وددت أني قرأت القرآن ووقفت عنده لم أتجاوزه إلى غيره»[2].

وهذا محمدُ بن واسعٍ يتكلّم عن القرآن بطريقته: «القرآنُ بستانُ العارفين، فأينما حَلُّوا منه، حَلُّوا في نزهةٍ»[3].

أما القاسم بن سلام فيختصر حبّه للقرآن بقوله: «لا ينبغي لحاملِ القرآن أن يرى أحدًا من أهل الأرض أغنى منه، ولو ملَكَ الدنيا برحبِها!»[4].

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٣٥).
(٢) حياة التابعين (ص: ٧١٢)
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).
(٤) غريب الحديث للقاسم بن سلام (ص ٢٩٩).

بل لقد بات حبّهم للقرآن لا يدور حول سوره، أو آياته فحسب، بل صار يستجلي معاني حروفه، ويقف تحت ظلالها!

فصار للحرفِ الواحد من القرآن تأثيرُه البالغ في قلوبهم.

عندما ذكَر اللهُ -عز وجل- الأصنافَ الثلاثة في سورة فاطر:

«الظالم لنفسه»..

«المقتصِد»..

«السابق بالخيرات»..

ذكَرَ مآلَ الجميع، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [الرعد: آية ٢٣]..

فيقول الشِّنقيطيُّ رحمه الله:

«والواو يدخلونها شاملةً للظالم، والمقتصِد، والسابق، ولذا قال بعضُ أهل العلم: حُقَّ لهذه الواوِ أن تُكتَبَ بماء العينينِ، فوعدُه الصادق بجناتِ عدنٍ لجميع أقسام هذه الأمة، وأولُهم الظالم لنفسه، يدلُّ على أن هذه الآيةَ من أرجى آياتِ القرآن، ولم يَبقَ من المسلمين أحدٌ خارجٌ عن الأقسام الثلاثة، فالوعدُ الصادق بالجنة في الآية شاملٌ لجميع المسلمين»[1].

(١) أضواء البيان (٦/ ١٨٤).

أسئلة مُلحّة

«لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل»



أسئلة مُلحّة

وبعد هذه الجولةِ، وبعد هذا التَّطواف، يأتي سؤالان مهمّان:

كيف نَفرَحُ بهذا الكتاب؟

ولماذا لا نفرح بكتاب الله؟

وسأحاول أن أختصر الإجابة عن السؤال الأول بسببين، وأختصر الإجابة عن السؤال الثاني بسبب واحد..

حتى نَفرَحَ بالقرآنِ

أما كيف نبتهج بالآيات؟!

وكيف نَصنَعُ لأنفسنا بهذا الكتاب فرَحًا دائمًا، بعد جَوْلاتٍ في المسرَّات "المؤقتة" التي نعودُ بعد مساراتها بكميةٍ لا بأس بها من الخيبات؟!

إن الآياتِ التي استبشَر بنزولها الصحابةُ، وفَرِحوا بنورِها، وبعبَقِها، وبأثرِها.. هي الآياتُ التي نتلوها، ونمرُّ عليها، ونحفظها..

فلماذا غيَّرتْ حياتَهم، وأنارت قلوبهم، وجمَّلتْ أعمارهم، ولم تَصنَعْ معنا شيئًا من ذلك؟!

يجيب ابنُ القيِّم -رحمه الله- عن هذه الأسئلةِ، فيذكر قاعدةً جليلة للانتفاع بالقرآن، فيقول:

"إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن، فاجمَعْ قلبَك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعَك، واحضُرْ حضورَ مَن يخاطِبُه به مَن تكلَّمَ به سبحانه، منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك على لسانِ رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: آية ٣٧]، وذلك أن تمامَ التأثير لمَّا كان موقوفًا على مؤثِّرٍ مقتضٍ، ومحلٍّ قابل، وشرطٍ لحصولِ الأثر، وانتفاءِ المانع الذي يَمنَعُ منه.. تضمَّنتِ الآيةُ بيانَ ذلك كلِّه بأوجَزِ لفظٍ وأبينِه وأدلِّهِ على المراد:

١- فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: هو المؤثِّر..

٢- وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: هو المحَلُّ القابل، والمراد به: القلب الحيُّ الذي يَعقِلُ عن الله، كما قال تعالى في سورة يس: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: آية ٦٩،٧٠] أي: حيَّ القلب.

٣- وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، أي: وجَّه سمعَه، وأصغى حاسَّةَ سمعِه إلى ما يقال له، وهذا شرطُ التأثُّر بالكلام.

٤- وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي شاهدُ القلب، حاضرٌ غيرُ غائب، قال ابن قُتيبة: استمَعَ كتابَ الله وهو شاهدُ القلب

والفهمِ، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ، وهو إشارةٌ إلى المانعِ من حصول التأثير، وهو سهوُ القلب وغَيْبتُه عن تعقُّلِ ما يقال له، والنظرِ فيه، وتأمُّله.

فإذا حصَلَ المؤثِّر: وهو القرآن.. والمحَلُّ القابل: وهو القلبُ الحي.. ووُجِدَ الشرطُ: وهو الإصغاءُ.. وانتفى المانع: وهو اشتغالُ القلب وذهولُه عن معنى الخطاب، وانصرافُه عنه إلى شيءٍ آخر، حصَلَ الأثرُ: وهو الانتفاعُ والتذكر»[1].

تعظيمُ المتكلِّم

وهنا سبب آخر، فحتى يصلَ قارئُ القرآن لتعظيم الكلام، والفرَحِ به.. فلابد من تعظيمِ المتكلِّم، والفرَحِ به، يقول جمال الدِّين القاسمي رحمه الله: «واعلَمْ أن للعبدِ في قراءةِ القرآن بحسَبِ ما له من تعظيمِه، والفهمِ له، والمشاهَدة منه، والمعامَلة به؛ لأنه من أكبَرِ شعائرِ الله في خَلْقِه، وأعظَمِ آياته في أرضه الدالَّاتِ عليه، وأسبَغِ نِعَمِه الكاملةِ علينا.. وللعبد من التعظيم له بقدر تَقْواه، وله من فهمِ الخطاب وتعظيمِ الكلام على نحو ما أُعطيَ من معرفة المتكلِّمِ وهَيْبتِه وإجلاله، فإذا عظُمَ المتكلِّمُ في قلبه، وكبُرَ في فهمِه.. أنعَمَ تدبُّرَ كلامه، وأطال الفكرَ في خطابه، وأكثَرَ تَرْدادَه وتكريره على

(١) الفوائد (ص ٣).

قلبه، وأسرَعَ بذِكره عند النازلة به، والحاجة إليه، فاتقى وحَذِر»[1].

ويقول ابنُ القيِّم: «والفرَحُ بالقرآن موقوفٌ على فهمِه، ومعرفةِ المراد منه.. فمَن رزَقه اللهُ تعالى ذلك، أبصَرَ الحقَّ والباطلَ عِيانًا بقلبه كما يرى الليلَ والنهار، وأشرقت ربوعُ حياته بنشوةِ فرَحٍ لا تنقطع»[2].

ولذلك تساءلَ الإمام الطبريُّ -رحمه الله- قائلًا: «إنِّي لأعجَبُ ممن قرأ القرآنَ ولم يَعلَمْ تأويلَه، كيف يلتَذُّ بقراءتِه؟»[3].

عوائقُ الفرَحِ

أما لماذا لا نفرح بكتاب الله؟

فهذا النصُّ الذي بين يديك يُخبِرُك بكل شيء..

يخبر بالمانع، ويصف العلاجَ..

في أوضحِ عبارة، وأسهلِ وصفٍ..

يقولُ ابن قُدَامةَ رحمه الله:

(١) الوعظ المطلوب من قوت القلوب (ص ٦٧).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٤٤) بتصرف.

(٣) مقدمة تفسير الطبري (ص ١٠).

«مِن موانعِ فهمِ القرآن والتلذُّذِ به أن يكونَ التالي مصرًّا على ذنبٍ، أو متصفًا بكِبْرٍ، أو مبتلًى بهوًى مُطاع، فإن ذلك سببُ ظُلْمةِ القلب وصدَئِه، فالقلبُ مثلُ المرآة.. والشَّهَواتُ مثلُ الصَّدأ.. ومعاني القرآنِ مثلُ الصُّوَرِ التي تتراءى في المرآةِ.. والرياضةُ للقلبِ بإماطة الشهواتِ مثلُ الجِلاء للمرآة»[1].

ويزيد ابنُ القيِّم -رحمه الله- المعنى كشفًا فيقول:

«لو رُفِعتِ الأقفالُ عن القلوب، لباشَرتْها حقائقُ القرآن، واستنارت فيها مصابيحُ الإيمان»[2].

ويختصر هذا الكلام كلّه ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فيقول: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل»[3].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (٤٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٣٧).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٠٦)

أخـــيرًا

وبعدُ أيها القارئ الكريم..

فهذه آياتٌ تدعوك إلى الفرَحِ بكتاب الله..

وهذه أفراحُهم بين يديك..

فمن المؤلِمِ أن نغادِرَ الحياةَ دون أن نتذوَّقَ شيئًا من هذا الفرحَ..

الذي سيَجعَل للحياة طَعْمًا مختلِفًا..

ولترقُّبِ القادم لذةً يَعجِزُ البيانُ عن وصفِها.



بعد أخيرًا

لكل إنسانٍ دعَوات، يرفَعُها دومًا للسماء، ويرجو اللهَ لها القَبول..

ما رأيُكم أن نَجعَلَ ضمن هذه الدعواتِ..

دعاءً جميلًا.. عَذْبًا..

سهلَ الكلمات، وعظيم الأثر؟!

اللهم املأْ قلوبنا فرَحًا بالقرآن..

وصلَّى اللهُ وسلم على نبينا وحبيبنا محمد..



الفهـــرس

